الرجل الذي سرق الشمس

محمود سالم

الرجل الذي سرق الشمس

تأليف
محمود سالم

هنـــداوي

الرجل الذي سرق الشمس

محمود سالم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: وجدان توفيق

الترقيم الدولي: ٠ ٢٤٣٥ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب في تاريخ غير معروف.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ محمود سالم.

المحتويات

من هم الشياطين الـ «١٣»؟	٧
أبطال هذه القصة	٩
خريطة لمكان مجهول	١١
على حافة العدم	١٧
الرجل الملثم	٢٣
في مصيدة التيبستي الموحشة	٢٩
شاي ورصاص	٣٥
الحل في فم «جولد»	٤١
خطر في كل مكان	٤٧
القوة الخفية	٥٣

من هم الشياطين الـ«١٣»؟

إنهم ١٣ فتًى وفتاةً في مثل عمرك، كلٌّ منهم يُمثِّل بلدًا عربيًّا. إنهم يقفون في وجه المؤامرات الموجَّهة إلى الوطن العربي ... تمرَّنوا في منطقة الكهف السِّري التي لا يعرفها أحد ... أجادوا فنون القتال ... استخدام المسدسات ... الخناجر ... الكاراتيه ... وهم جميعًا يُجيدون عدة لغات.

وفي كل مغامرةٍ يشترك خمسة أو ستة من الشياطين معًا ... تحت قيادة زعيمهم الغامض رقم «صفر» الذي لم يرَه أحد، ولا يعرف حقيقته أحد.

وأحداث مغامراتهم تدور في كل البلاد العربية ... وستجد نفسك معهم مهما كان بلدك في الوطن العربي الكبير.

أبطال هذه القصة

رقم «١»: «أحمد» من مصر.

رقم «٢»: «عثمان» من السودان.

رقم «٣»: «إلهام» من لبنان.

رقم «٤»: «هدى» من المغرب.

رقم «٥»: «بو عمير» من الجزائر.

رقم «٦»: «مصباح» من ليبيا.

رقم «٧»: «زبيدة» من تونس.

رقم «٨»: «فهد» من سوريا.

رقم «٩»: «خالد» من الكويت.

رقم «١٠»: «ريما» من الأردن.

رقم «١١»: «قيس» من السعودية.

رقم «١٢»: «باسم» من فلسطين.

رقم «١٣»: «رشيد» من العراق.

رقم «صفر»: الزعيم الغامض الذي لا يعرف حقيقته أحد!

خريطة لمكان مجهول

كانت أمسية يوم حار ... عندما اجتمع الشياطين الـ ١٣ في قاعة الخرائط بالمقرِّ السري رقم «٢» في بيروت، وكان عم «سرور» العملاق يقف مُبتسمًا وهو يَراهُم في القاعة الواسعة يتهامسون ويبتسمون ... في انتظار دقات الساعة عندما يبدأ عرض ما سُمي: «نقطة مجهولة على خريطة العالم».

وأخذ الشياطين يتبادَلون الآراء حول هذا المكان المجهول. وهل هو في أوروبا أو أمريكا أو آسيا أو أفريقيا أو ربما في أستراليا ... وقال «عثمان»: من المدهش أن هناك أماكن مجهولة حتى الآن في العالم! ... ونحن في عصر الطيران الأسرع من الصوت. وفي عصر الإلكترونات ... إن وجود هذا المكان ليعتبر حدثًا جغرافيًّا خطيرًا.

قالت «إلهام» معلِّقة: بالتأكيد هناك أماكن مجهولة لم تطأها قدم إنسان حتى الآن، في الصحاري مثلًا ... وفي أدغال أفريقيا وفي الصحاري الجليدية في شمال أوروبا وآسيا ... وفي جزر المحيط الهندي والهادي!

ودقَّت الساعة معلنة السادسة، وصمتت الأصوات وظهر على الشاشة الكبيرة أمامهم خريطة لأفريقيا ... وعرف الشياطين على الفور أن المكان المجهول موجود على وجه القارة الكبيرة «ثاني قارات العالم بعد آسيا».

وأُطفِئَت أنوار القاعة ... وبدت الخريطة في الظلام متوهجة بالضوء والألوان وتحرك مؤشر أزرق على وجه الخريطة وأخذ يقترب حتى وصل إلى نقطة وسط الصحراء الكبرى، جنوب الجمهورية العربية الليبية وشمال جمهورية تشاد ... وبدأ صوت رقم «صفر» المسجل يَنطلِق:

هذه هي المنطقة الوسطى في الصحراء الكبرى، وبالتحديد بين خطَّي عرض ٢٠/ ٣٠ وخطَّي طول ١٠ / ٢٠ وهي منطقة خالية من السكان تمامًا ... ولا توجد بها إلا بعض

قبائل البدو المتنقِّلين ... سواء من الجمهورية العربية الليبية أو جمهورية تشاد أو جمهورية الجزائر الديمقراطية الشعبية.

وسكت صوت رقم «صفر» وأخذ المؤشر يقترب أكثر من دائرة صغيرة رُسمت جنوب الدولتَين العربيتَين، والدولة الأفريقية، وعاد صوت رقم «صفر» يرن في الصمت:

في هذه المنطقة حدثت عدة أشياء مُدهشة استمرت حتى الآن نحو ثلاثين عامًا ...

وازداد اهتمام الشياطين بما يَسمعون ... ومضى رقم «صفر» يقول: اختفت قبيلة تُدعى «العليات» ... كانت تعيش حول غدير ماء في تلك المنطقة ... ولم يَظهر لها أثر بعد ذلك مطلقًا ... وفشلت جميع الجهود التي بُذلت للعثور عليها، وبعد ذلك بخمسة أعوام اختفت قافلة سيارات، وكانت ترتاد هذه المناطق لَمسحِها جغرافيًّا، ومرةً أخرى لم تسفر الجهود التي بذلت للبحث عنها عن أيِّ نجاح وبدأت جهود دولية للبحث عن سر هذه المنطقة الغامضة ... خاصةً وأنه لم يعثر على آثار مطلقًا للقبيلة المذكورة ولا لقافلة السيارات. وقامت بعثة مكونة من عشر سيارات حديثة ومعها قوة مسلحة وبعض العلماء للبحث، ولكن المُخيف والمرعب معًا أن هذه البعثة التي كانت مزوَّدة بجميع وسائل الاتصال اللاسلكي بالعالم ... اختفت هي الأخرى دون أن تتصل ... ودون أن تَترك أثرًا واحدًا ... وكان البحث عنها قد تمَّ بعدد من طائرات الاستكشاف ظلَّت تدور فوق المنطقة لبضعة أيام، ولكن لم يكن هناك من أثر ... ولم يُشاهِد من كان فيها إلا تلال الرمال، ولا شيء آخر مطلقًا.

وسكت رقم «صفر» لحظات ثم مضى يقول: والتفسير الوحيد الذي قدمه الذين تتبعوا هذه الظاهرة الخطيرة أن هناك رمالًا متحركة هي التي دفنت كل الذين حاولوا اكتشاف هذه المنطقة ... ولكن هذا التفسير ليس مقنعًا ... لأن القافلة الأخيرة كانت مزوَّدة بوسائل اتصال قوية ... ولو تعرَّضت لزحف الرمال المتحرِّكة ... لاتصلت لاسلكيًّا ... بل كان في إمكان بعض السيارات أن تبتعد عن منطقة الرمال في وقت مُناسِب.

وساد الصمت لحظات ثم مضى الصوت يقول وهو يحرِّك المؤشر في دائرة: وهكذا يمكن أن يقال إن سر هذه المنطقة ما زال مجهولًا ... ثم هناك شيء هامٌّ وخطير هو أن العلماء يؤكِّدون وجود ظواهر تدلُّ على أن في المنطقة نوعًا أو أكثر من العناصر ذات الإشعاع الذري ... فهل هناك علاقة بين ظاهرة اختفاء القبائل والقوافل في هذه المنطقة وبين وجود هذه العناصر المشعة؟!

للإجابة على هذا السؤال أُرسلَت مرةً أخرى بعثة من العلماء والضباط في سيارات مزودة بجميع وسائل القتال ... الوقاية من الإشعاع ... والاتصال الفوري ... ولكن ...

وسكت رقم «صفر» لحظة ثم قال: ولكن هذه البعثة اختفت منذ وصولها إلى هذا المكان ولم يَرِد عنها أي خبر ... وكان ذلك منذ شهرين فقط!

ومضى رقم «صفر» في صوت عميق يقول: وقد جاء دور الشياطين الـ ١٣ ليتدخلوا لحل هذا اللغز الغامض ... ونرجو أن تَعقدُوا حلقة بحث ... لتقديم مقترحاتكم حول هذا الموضوع ... إنني أريدكم أن تذهبوا فقط لجمع معلومات عن المنطقة وليس لاقتحامها.

وسكَتَ الصوت، وساد صمت ... استمرَّ لحظات ثم قال «قيس» مفتتحًا المناقشة: أعتقد أنه لا يُمكِن تقديم تفسير لهذه الظاهرة العجيبة دون أن نسافر إلى الموقع ونرى ما يحدث هناك ... أما أي حديث الآن فلا معنى له.

رد «فهد»: قد نذهب ولا نعود يا «قيس». ثم إن مهمتنا جمع المعلومات وليس تفسير الظاهرة.

قيس: آسف إذا قلت لك إن هذه المعلومات التي سمعناها لا تَدخُل رأسي. إن ما سمعناه لا يُمكن تفسيره علميًّا.

إلهام: هذا صحيح ... ولعل هناك قوة غامِضة خلف هذه الحوادث كلها!

أحمد: هل تقصدين أنها ليست ظاهرة طبيعية؟!

إلهام: بالتأكيد لا ... إنه ليس بحرًا تَغرق فيه القوافل فلا يراها أحد. إنها رمالٌ ... ومهما كان لا بدَّ أن يبقى أثرٌ لهؤلاء الذين اختفوا ... أما أن تختفي سياراتٌ كاملة وعشرات الأشخاص دون أن يتركوا أثرًا خلفهم ... فلذلك لا يُمكن أن يكون طبيعيًّا! إنه شيء فوق الطبيعة!

فهد: المهم الآن ... ما هي اقتراحاتكم؟!

مصباح: إن هذه المنطقة أعرفها إلى حدٍّ ما.

أحمد: بالتأكيد أنت أكثر من يعرفها بيننا ... فأنت من الجمهورية العربية الليبية وهذه المنطقة التي وقعَت بها الأحداث الغامضة تقع في الجنوب من ليبيا.

مصباح: الحقيقة أنه ليس هناك معلومات كافية عن هذه المنطقة ... سوى أنها من الصحراء الكبرى ... شديدة الحرارة حيث يمرُّ بها مدار السرطان. وليست هناك حياة بالمعنى المفهوم ... ولكن هناك بعض القرى الصغيرة التي يسكُنُها البدو ... ومنها الجوف وترهوني وقطرون ... ووزو وكومو على الحدود ... ومرزق ... وغات وهي جميعًا تبع ليبيا ... وأقرب قرية أخرى هي ثماناراست وهي تتبع الجمهورية الجزائرية ... وأعتقد أننا لو قمنا برحلة إلى بعض هذه المناطق فربما حصلنا على معلومات تساعدنا ... أما المراقبة بواسطة الطائرات فلن تؤدِّي إلى شيء!

زبيدة: أنت إذن تُفضِّل نظرة على الواقع!

مصباح: طبعًا ... إنَّ وضع نظريات هنا لحل مشكلة على بعد آلاف الكيلومترات كلام غير منطقي، لا بد من السفر إلى هناك لجمع المعلومات!

أحمد: إنَّني متفق تمامًا مع «مصباح» ... لا بدَّ من بعثة تسافر حالًا تجوس خلال هذه المنطقة وتعود بمعلومات نستطيع على أساسها أن نضع خطة معقولة.

وأحنى أكثر الشياطين رأسه علامة الموافقة ... وتناقشوا في أسماء المسافرين واستقر الرأي على بعثة من ستة شياطين هم: «مصباح»، «بو عمير»، «أحمد»، «إلهام»، «زبيدة» و«هدى».

وسرعان ما كانت «إلهام» تتَّصل برقم «صفر» لا سلكيًّا وتُخبرُه بما توصَّل إليه الشياطين الـ ١٣ وأسماء المسافرين، ومنهم ٤ من منطقة شمال أفريقيا حيث تقع الأحداث.

وبعد ساعة رد رقم «صفر»:

موافق. وستكون المعدات اللازمة جاهزة في بنغازي بليبيا بعد ثلاثة أيام.

وانفضَّ اجتماع الشياطين، واجتمع الستة المُرشَّحون للسفر، وقضَوا فترة في مناقشة واسعة حول المغامَرة المُقبِلة، وقال «أحمد» مُقترحًا: ما رأيكم في سيارة تُوجَّه لا سلكيًّا؟! إن النقطة الأساسية التي تجعل هذا الموضوع غامضًا أن لا أحد مُطلقًا قد عاد لِيَروي ما حدث. إنهم يَذهبُون جميعًا ولا يعُودون ... إنَّ هذه المنطقة أشبه بالعدم ... لا يعود أحدٌ منها.

مصباح: إنه تعبير موفَّق ... فلنُسمِّها منطقة العدم.

هدى: أتمنَّى أن يَشرح «أحمد» فكرته أكثر!

أحمد: إنَّ السيارة التي أريدُها يُمكن أن نسمِّيَها سيارة اختبار، سنُرسلها إلى منطقة العدم ... ونُراقبها من بعيد ... وسوف نَعرف عن طريق ما يَحدث ... ما هي القوة الخفية التي تُسيطر على هذه المنطقة وكيف تُخفي كل أثر لِمَن يمرُّ فيها؟!

هدى: الآن فهمت ... ومعقول جدًّا هذا الاقتراح، ولنُخطِر رقم «صفر» به.

بو عمير: ما رأيكم في استخدام كلبٍ بوليسيٍّ مدرَّب في هذه العملية؟! ... إنَّ الكلاب تتمتَّع بحواسَّ خارقة للسمع ... ولعلَّها تُفيدنا وعندنا عدد كبير من أذكى الكلاب يُمكن أن تُساهم في هذه العملية.

إلهام: أرشِّح الكلب «جولد» لهذه المهمة ... فهو قد تدرَّب في صحراء المقرِّ السري ... وأثبت مواهب عظيمة في تقصِّي الأثر.

أحمد: لا بأس ... اطلُبُوا من «سرور» إحضارَه من الحظيرة ... ليعيش معنا هذه الفترة قبل السفر.

وحضر «جولد» يقودُه «سرور» ... وأخذ يقفز كالوحش هنا وهناك ... كان كلبًا ضخمًا من نوع الولف الألزاسي ... رمادي اللون مع شريط أسود عريض يمتد من رأسه إلى ذيله ... وفم أسود وعينَين لامعتَين كالذهب ... وربما لهذا سموه «جولد».

قضى الشياطين الستة الأيام السابقة على السفر يستعدون ... ويقرءون مختلف المعلومات عن منطقة العدم ... وقد كانت معلومات قليلة للغاية ... لم تَزد عما قاله «مصباح».

في اليوم الثالث ... كان الشياطين الستة المسافرُون ... قد أعدُّوا كل ما يَحتاجون من أدوات. وكان رقم «صفر» قد أخطرهم أن السيارات المطلوبة للرحلة والطعام والأسلحة قد أعدَّت في بنغازي، وهكذا في الصباح الباكر صباح الرابع كانوا يستقلُّون الطائرة ومعهم «جولد» إلى المدينة الليبية ... ووصلُوا بعد ثلاث ساعات. وتوجهوا إلى «ليبيان بالاس»، وهو الفندق الذي سيقضون فيه ليلتهم الأخيرة بين الناس قبل أن يتوغلوا في الصحراء الليبية جنوبًا إلى القرى الصغيرة المتناثرة جنوبًا لجمع المعلومات المطلوبة ... وقد أحضر لهم «مصباح» ما يحتاجونه من خرائط.

أوى الشياطين الستة إلى أَسرَّتهم مبكرين ... وفي الخامسة صباحًا استيقظوا ... وفي السادسة كانت السيارات الثلاث التي أُعدَّت لهم قد بدأت سيرها ... وبعد ساعتين من السير خلفوا وراءهم مدينة بنغازي واستقبلوا الصحراء الواسعة المترامية الأطراف ... وهم يسيرون بجوار ساحل البحر.

على حافة العدم

مضت السيارات الثلاث تشقُّ طريقها مُسرِعة على الأرض الممهَّدة ... في السيارة الأولى «أحمد» و«إلهام» ومعهما الكلب «جولد» ساكنًا يَرمق في تأمُّل بحر الرمال البعيد.

والسيارة الثانية يقودها «مصباح» ومعه «زبيدة»، والثالثة ... وهي السيارة التي يُمكن توجيهها باللاسلكي، «بو عمير» ومعه «هدى». كانت على يَمينهم المياه الزرقاء للبحر المتوسِّط ... وعلى يسارهم الصحراء ... وكان الجو مُنعشًا قد ملأته رائحة البحر ... وكانت وجهتُهم مدينة العقيلة على الساحل ... وكان مقدرًا أن يَصلوا إليها في الظهيرة لِيَرتاحوا ويتناولوا غذاءهم ويستقُوا بعض المعلومات قبل التوغُّل في الصحراء.

وكان كل واحد وزميلته يتبادلان حديثًا قصيرًا، ثم يعودان إلى الصمت ... فقد كانوا جميعًا يُفكِّرون في هذه القوة الخفية التي تَربض وسط الصحراء ... في نقطة العدم التي لم يَعُد منها أحد ... وكانت «إلهام» بالذات ... وهي المسئولة عن التموين تُفكِّر في المياه ... هل ما معهم يَكفي؟! إنَّ العدو الأول في رحلات الصحراء هو العطش، وكم مِن مرةٍ هزَم هذا العدو رُوَّاد الصحراء!

انقضت الساعات مُملَّة متشابهة ... لم يكن يقطع مللَها إلا موسيقى خفيفة كانت تَنطلِق من راديوهات السيارات ... وبعض السيارات المارَّة عائدة من جوف الصحراء إلى بنغازي.

وكما قدروا ... وصلُوا العقيلة قرب الظهر ... فأراحوا السيارات، ورفعوا أغطية المحركات ... ونزلوا إلى مطعم قريب فتناولوا غداءهم ... وملأت «إلهام» خزانات المياه التي نقصت ... ثم ارتاحوا ساعة، وبدءوا جولتهم في المدينة يسألون عن الرحلات التي سبقتْهم ... ولم يسمعوا إلا شائعات لا تُصدَّق عن الذين لم يعُودوا ... بعض الناس قالوا

إنَّ الرمال المتحرِّكة ابتلعتْهم ... وبعضهم زعم وجود وحوش خرافية تستطيع أن تَبتلع سيارات بأكملها.

بل ذهبت بعض الشائعات إلى الحديث عن عفاريت الصحراء ... وقدرتهم الخرافية ... ولم يكن بين هذه الأحاديث كلها ما يُمكِن أن يُفسِّر علميًّا ... اختفاء كل هذه السيارات وكل هؤلاء الأشخاص الذين ذهبوا ولم يعودوا مُطلقًا ...

ولم يجد الشياطين شيئًا يقولونه ... إلا أن القوة الخفية في نقطة العدم ما زالت مجهولة ... وأنهم يتحدون شيئًا مجهولًا لا يعرفه أحد.

وعادت السيارات الثلاث تَطوي الأرض مُتوغِّلة في الصحراء، وقد غاب البحر الأزرق ولم يَعُد هناك سوى بحر الرمال الأصفر ... لا تقطعه على مدى البصر سوى بعض التلال الحجرية التي تبدو من بعيد كأشباح ضخمة يُغلِّفها لهيب الصحراء المحرق ... وكان «مصباح» الليبي قد تولى قيادة السيارة الأولى في هذه الرحلة؛ فقد كان بالطبع أكثر خبرةً بالصحراء من «أحمد».

ومضَت الساعات دون حادث يُذكَر ... وفجأة دوَّى طلق ناري بدَّد الصمت المُوحِش ... وكان واضحًا أن مصدر الصوت من العربة الثالثة التي يقودها «بو عمير» وتوقَّفَت العربات الثلاث ... وأسرع «بو عمير» يقفز من سيارته صائحًا: لا شيء هناك ... لقد شاهدتُ سحلية ضخمة من سحالي الصحراء ... فجرَّبتُ فيها مسدَّسي الجديد.

ونزل بقية الشياطين ... ولم يُعاتِب «أحمد» «بو عمير»؛ فقد كانوا جميعًا يعرفون هوايته في إطلاق النار ... ودقَّة تصويبه، وكثيرًا ما كان سلاحه مُنقذًا في أوقات الشدة.

وأشار «بو عمير» إلى مكانٍ قريب، واتَّجهت الأنظار كلها إلى حيث أشار، كانت هناك سِحلية ضخمة ترقد على الأرض وهي تتحرَّك مكانها لا تستطيع الزحف ... واقتربوا منها ... وكانت الرصاصة قد أصابتْها في الرأس تمامًا ... فلم يَطُل نزعها الأخير ... واستسلمَت للسكون الأبدي.

قال «مصباح»: هذه المنطقة من الصحراء تسكُنها السحالي الضخمة، وبعض الزواحف المجهولة ... وطبعًا تعمر بالحيات والثعابين ... ولا بدَّ أن «إلهام» قد أعدَّت بعض الإسعافات المضادة.

ردَّت «إلهام»: طبعًا ... معي أنواع من الأمصال لهذا الغرض!

وكان الكلب «جولد» قد استهوتْه الصحراء المُترامية فأخذ يَجري هنا وهناك ... فقد كان مُتضايقًا من الجلسة الطويلة المُجهِدة في السيارة ... وكذلك كان الأصدقاء ... فانتهزوا

جميعًا الفرصة ... وطلبوا من «إلهام» شيئًا مثلجًا يَروي عطشهم ... فقالت «إلهام» وهي تُوزِّع عليهم عصير الليمون المثلَّج: قد تكون هذه آخر قطرة من المثلَّجات ... فالشمس الحامية ستُذيب الثلج الذي معنا رغم أنه في ثلاجات صغيرة.

قال «مصباح»: لقد ملأتُ بعض الزمزميات لهذا الغرض ووضعتُها في مقدمة سيارتي، وهي مكوَّنة من إناء من الزنك يُحيطه اللباد، فإذا ما ابتلَّ اللباد فإن تعريضَه للهواء يُؤدِّي إلى تبريد الماء ... وهي أفضل وسيلة لتبريد المياه في الصحراء.

ابتسمت «إلهام» قائلة: إنَّ هذا لم يَغِب عنِّي ... وأمام كل سيارة ثلاث زمزميات لهذا الغرض.

أمضَوا بضع دقائق واقفين، وقاموا ببعض الحركات الرياضية لتمرين أعضائهم المتيبِّسة من الجلسة الطويلة في السيارة ثم استأنَفُوا السير.

هبط المساء على الصحراء الواسعة ... وهبَّت ريح باردة أخذت تَتزايد تدريجيًّا حتى إذا ما غابت الشمس خلف الأفق كانت قد أصبحت عاصفة عاتية ... وتحدَّث «مصباح» لا سلكيًّا إلى «أحمد» و«بو عمير» واتفقوا على أن يتوقَّفوا، ويقضوا الليل في أقرب مكان يُمكن أن يقيَهم عصف الريح البارد ... وظل «مصباح» يقود القافلة حتى وجد تلًّا حجريًّا عاليًا فدار حوله حيث يُصبح في الجانب المضاد لهبوب الريح ثم توقف، وتوقَّفَت خلفه السيارتان.

كان الشياطين خبراء في نصب الخيام، فأقاموا خيمتَين في أقل من ساعة، إحداهما لـ «أحمد» و«بو عمير» و«مصباح»، والثانية لـ «هدى» و«إلهام» و«زبيدة» ... وقامت الفتيات الثلاث بإشعال بوتاجاز صغير وضعْن عليه طعام العشاء، بينما اجتمع الشبان الثلاثة يتحدَّثون.

قال «مصباح»: بعد ساعة من المسير سنَصل إلى جبال «تيبستي» وهي تَنحدِر جنوبًا حتى كومو، وهي آخر مدينة ليبية على الحدود بين ليبيا وجمهورية النيجر ... وأعتقد أن نقطة العدم كما حدَّدها رقم «صفر» على الخريطة تقع في هذه المنطقة ... ولا بد أننا سنجد بعض المعلومات هناك عن القوافل التي تلاشت.

«بو عمير»: أرجو ألا تكون مجرَّد إشاعات كما سمعنا في العقيلة.

«مصباح»: إنَّ العقيلة بعيدة جدًّا عن مسرح الأحداث، ولكن لا بد أن نجد أخبارًا معقولة في كومو، فإذا لم نجد فعلَينا أن نذهب إلى وزو، وهي آخر مدينة ليبية على الحدود بين ليبيا وجمهورية تشاد، فإذا لم نجد أخبارًا في المدينتَين ... فعلينا أن نقتحم منطقة

العدم ... ومركزها كما أرى على الخريطة نقطة بين الدول الثلاث. ليبيا، وتشاد والنيجر ... أم سنعود؟!

أحمد: إنَّ مهمتنا محدود بجمع المعلومات فقط ... ولكن ...

بو عمير: ولكن طبعًا إذا وجدنا سبيلًا إلى كشف الحقيقة في منطقة العدم، فلن نتردَّد في اقتحام أي شيء!

أحمد: بالتأكيد!

هبط الظلام تمامًا على الصحراء الواسعة ... وساد صمت ثقيل لا يقطعه سوى هبوب رياح بارِدة وانضمَّت الفتيات الثلاث ولم يتحدَّث أحد ... وبعد لحظاتٍ قالت «إلهام» وهي تَفرد خريطة المنطقة أمامها: أعتقد أننا في بداية جبال تيبستي، وحسب معلومات رقم «صفر»؛ فنحن على مقربة من مكان القبيلة الأولى التي اختفَت ... ولعلَّ من المُمكن غدًا صباحًا أن نَبحث عن آثارها.

بو عمير: لقد انقضَت مدة طويلة جدًّا على اختفاء هذه القبيلة ... ولا أظنُّ أننا سنجد شيئًا!

إلهام: إنَّ وجود قبيلة في هذا المكان المُجدب البعيد يعني وجود عين ماءٍ قريبة، فإذا عثرنا عليه فقد نجد حوله ما يَعني شيئًا.

أحمد: سنبحث غدًا صباحًا في حدود ثلاث ساعات فقط. فإذا لم نجد شيئًا يستحق الانتظار انطلقنا غربًا إلى كومو.

وقامت «زبيدة» و«هدى» فأحضَرَتا العشاء، وانهمك الشياطين الستة في الأكل بعد أن وضعوا لـ «جولد» كفايته من الطعام ... وبعد أن انتهوا منه قال «أحمد»: سنُقسِّم الحراسة على ثلاثة أقسام. الفتيات الثلاث من الآن حتى العاشرة، ثم «مصباح» و«بو عمير» ... وسأتولَّى نوبة حراسة الفجر.

وقام الشبَّان الثلاثة إلى النوم ... كانت رحلة السيارات الطويلة قد أتعبتْهم إلى حدٍّ ما ... وسرعان ما استغرقُوا في النوم.

قالت «هدى»: إنني أحسُّ برغبة في النوم ... وأعتقد أن الحراسة لا مُبرِّر لها ... فليس في هذه المنطقة ما يُخشى منه ... ويكفي أن «جولد» مستيقظ.

زمجر «جولد» بهدوء مُعلنًا عن موافقته ... وكأنه كان يؤكِّد قدرته على الحراسة وحده.

ولكن «إلهام» قالت: يُمكنكِ أن تنامي أنتِ يا «هدى»... سأبقى مُستيقِظة.

أضافت «إلهام» بعد لحظات: وكذلك أنتِ يا «زبيدة» في إمكانك أن تنامي.

قامت «هدى» للنوم ... ولكن «زبيدة» رفضت وقالت: سأبقى معكِ ... على الأقل نتحدَّث معًا.

كانتا تجلسان في ظلِّ التلِّ الذي اختاروه ليُقيموا الخيمتَين بجواره ... واستندَتا على الصخور السوداء وأرسلتا البصر إلى بعيد ... ومضى بعض الوقت، وفجأة زمجر «جولد» ووقف يُدير رأسه رافعًا أنفه إلى السماء يتشمَّم رائحةً مجهولة ... وبعد لحظات وقف شعره وأخذ يدور مكانه في اهتياج ... وربتت «إلهام» على ظهره محاولةً تهدئته، ولكنه استمرَّ يُشمشم ويدور ... وأحسَّت «إلهام» أن شيئًا يَستثير «جولد» ... ولكن الكلب الضخم استمرَّ يُبدي قلقه وتوتُّره.

مدَّت «إلهام» يدها إلى بندقية سريعة الطلقات ... وأعدتْها للإطلاق ... كانت متأكِّدة أن «جولد» قد اشتمَّ خطرًا قريبًا ... ووقفَت ... وتحرَّك «جولد» فتحرَّكت خلفه. ودارت معه حول التل. وفي الظلام الكثيف الذي لا تُضيئه سوى النجوم البعيدة شاهدَت شبحًا مُتحرِّكًا في الظلام على مَبعدة ... كان الشبح شيئًا مخيفًا ضخمًا يتحرَّك في بطء ويهتزُّ إلى الأمام والخلف في مشيتِه ... وتذكَّرَت «إلهام» وحوش الصحراء المُنقرِضة، وتوقَّعَت أن ترى ديناصورًا ضخمًا يُطلق اللهب من فمه، ووضعت البندقية في كتفها، ووضعت إصبعها على الزناد ... وانطلق «جولد» فجأةً جاريًا في اتجاه الشبح ... وتردَّدت «إلهام» في إطلاق الرصاص؛ فقد اقترب الشبح الضخم ... وتبيَّنَت أنه رجل يَركب جملًا كبيرًا.

أخذ «جولد» ينبح بعمقٍ ووحشية ... وبدأ الجمل يجري بسرعة متجهًا ناحية «إلهام» ... وجاءت «زبيدة» على نباح الكلب تَحمل بندقية هي الأخرى واقترب الجمل وراكبه ... وصرخت إلهام: «جولد»! اهدأ!

وامتثل الكلب الضخم، واقترب الجمل حتى أصبح على بُعد أمتار من مكانِ الفتاتَين، وقالت «إلهام»: قف عندك!

وتوقَّف الجمل مكانه ... وأخرجت «زبيدة» بطاريتها وأطلقت شعاعًا قويًّا من الضوء شمل الجمل وراكبه ... كان جملًا ضخمًا من جمال الصحراء القوية ... على سنامه المرتفع تربع رجل طويل القامة في ملابس بيضاء ... وقد أخفى وجهه وراء لثام أبيض فلم يبقَ ظاهرًا منه سوى عينيه.

توقف الرجل لحظات، ثم تقدم غير مبالٍ بالسلاح الموجَّه ضده، ثم لكز الجمل في خاصرته فأناخ ... وهبط الرجل بهدوء ... وسوَّى ثيابه بعناية ... ثم تقدم من «إلهام» و«زبيدة» ... كان طويلًا أكثر من المعتاد ... عريض المنكبين وبدا خلف لثامه وفي ملابسه البيضاء كأنه بطلٌ أسطوري من عالم آخر ... وظلَّ يتقدم حتى وقف أمام الفتاتين ثم رفع يده بالتحية وقال: عليكما السلام، ولتُباركككما السماء.

الرجل الملثم

ردَّت «إلهام» السلام، ولكنها ظلَّت ترفع بندقيتها ... وتقدَّم الرجل دون خوفٍ وقال: هل من طعام؟

ردَّت «إلهام»: من أنت؟

رد الرجل: عميد بن شعبان.

إلهام: ماذا تريد؟

الرجل: طعامًا وشرابًا!

فكَّرت «إلهام» لحظات ثم قالت: تفضَّل!

وتقدم الرجل حتى تجاوز «إلهام»، ثم اختار مكانًا سوَّى رماله بقدمه، ثم جلس، واستدارت «إلهام» إليه، واعترتْها رعشة وهي تلمَح عينَيه تبرُقان في الظلام ... وكانت «زبيدة» قد ذهبت فأيقظت «أحمد» الذي خرج مسرعًا ليجد الرجل جالسًا كالتمثال الأبيض في ظلام الصحراء والصخور والليل.

تقدَّم «أحمد» فألقى السلام على الرجل، وجلس بجواره بعد أن تحدث مع «إلهام» بسرعة، وبينما انصرفت «إلهام» و«زبيدة» لإعداد الطعام ... قال «أحمد»: سمعتُ أن اسمك «عميد بن شعبان»، وأنك جئت طلبًا للطعام والشراب.

قال الرجل: هذا صحيح.

أحمد: من أين أقبلت؟

عميد: من مكان بعيد.

أحمد: من أين بالتحديد؟

عميد: من الهوجار ... بعيدًا في جنوب الجزائر.

أحمد: وماذا أبعدك عن مواطنك؟

عميد: إني تاجر ... ولي مصالح مُتعدِّدة في أماكن مختلفة.

وسكت الرجل لحظات ثم قال: لقد عرفتُموني ... ولكن من أنتم؟

لم يجبه «أحمد» على الفور ... ثم قال بعد لحظات: نحن مجموعة من الشباب جئنا للسياحة في هذه المنطقة ولصيد الغزلان.

رد «عميد» على الفور: ولكن ليس هنا شيء يستحقُّ الرؤية ... الصحراء والجبال ومناطق الصيد بعيدة عن هنا!

أحمد: ربما تكون الخرائط قد ضلَّلتنا ... فأين هي أقرب قرية إلى هذا المكان؟

عميد: قرية وزو أو كومو ... كلاهما على مسافة.

أحمد: لعلك تدلُّنا على أقصر طريق إلى إحداهما.

عميد: إن شاء الله!

قدمت «إلهام» و«زبيدة» الطعام إلى الضيف، فأقبل عليه بهدوء ... ولاحظ «أحمد» أنه لا يأكل أكل الجائع ... وانتهى الرجل من طعامه سريعًا، ثم شربَ الشاي، ثم قام إلى جَمله فأطعمه، ثم عاد واستأذن الأصدقاء ونام.

طلب «أحمد» من «زبيدة» و«إلهام» أن تناما ... وجلس وبين يدَيه بندقية سريعة الطلقات يرقب الرجل النائم ويُفكِّر ... وكان «جولد» يَجلس بين قدمَيه هادئًا، ومضى الوقت و«أحمد» يضع شتى الاحتمالات عن شخصية الرجل ... إنه قوي ... واثقٌ من نفسِه، فيه شيء غامض ... هل هو عدو؟! هل هو صديق؟! وإذا كان عدوًّا، فلماذا؟! هل له علاقة بهذه القوة الخفية التي أخفَتْ إلى الأبد رجالًا وسيارات وأجهزة دون أن تترك أثرًا؟! وهل يكون مصيرهم مثل كل هؤلاء الذين حضروا إلى منطقة العدم ولم يُغادرُوها أبدًا؟!

مرَّت الساعات، وازداد البرد، فأحضر «أحمد» بطانية تغطَّى بها هو والكلب «جولد» ولم يبقَ باديًا منهما سوى رأسَيهما ... وتجاوَزت الساعة الثالثة صباحًا و«أحمد» جالس مكانه ... وفكر أن يوقظ «بو عمير» و«مصباح» ... ولكنه فضَّل أن يبقى ساهرًا ... وظل الرجل نائمًا حتى بدأت أشعة الشمس تتسلَّل إلى الأفق، فاستيقظ وعلى ضوء النهار الوليد، تأمَّله «أحمد» وازداد اقتناعًا أن خلف هذا الرجل سرًّا يُخفيه وأنه ليس تاجرًا كما يدَّعي ... وإلا فأين ما يُتاجر فيه؟

وتبادَلا تحيَّة الصباح، وأيقظ «أحمد» بقية الشياطين ... كانت مُفاجأةً لـ «هدى» و«بو عمير» و«مصباح» وجود الرجل الغريب، وقال «مصباح» مُحدثًا الشياطين بينما الرجل يتناول إفطاره وحده: إنه من الطوارق ... وهم البدو الملثَّمون فقط في هذه الصحراء ... فمن تقاليدهم أن يَتلثَّم الرجل وتُسفِر المرأة عن وجهها، وهم مُقاتلون أشدَّاء.

أحمد: لقد لاحظت على الضوء أنه يَحمِل مسدَّسًا وخنجرًا ... وهناك بندقية حديثة مع حاجياته على الجمل.

مصباح: إنه ليس رجلًا عاديًّا على كل حال ... فثيابه من قماشٍ ثمين، وكسوة الجمل غالية ... وربما كان أميرًا من أمراء الطوارق!

أحمد: ألا نستطيع أن نطلب منه كشف اللثام عن وجهه؟

مصباح: لا يمكن ... إن من يكشف اللثام عن وجهه من رجال الطوارق يُقتل على الفور ... إنه عارٌ لا يمحوه إلا الدم!

وانضمَّ الطارقيُّ إليهم، وعلى ضوء الشمس التي سطعت بدَت عيناه اللامعتان القاسيتان ... وسمرة بشرته وغزارة شعر حاجبَيه ... وقال الطارقي مشيرًا إلى اتجاه الغرب: سأسبقُكُم على الجمل ... واتبعوني ... إن سرعة سياراتكم في الرمال لن تَزيد عن سرعة الجمل كثيرًا ... وشكرًا على ضيافتكم الكريمة ...

وقفز إلى جمله في رشاقة وانطلق قبل أن يتلقَّى من الشياطين ردًّا ... وأشار «أحمد» إلى زملائه، وجلسوا في شكل حلقة يتحدَّثون فقال «أحمد»: أعتقد أنكم تشاركونني الإحساس أن حكاية «عميد بن شعبان» عن نفسه وعن تجارته ليست عادية ... والآن هل نتبعه أو لا نتبعه؟

كان أول المتحدثين «بو عمير» الذي قال: إذا كان لهذا الطارقي «عميد بن شعبان» علاقة بما يحدث في منطقة العدم ... فهذه فرصتُنا لنَعرف شيئًا عنها ... وإنني أقترح أن نتبعه على الفور!

بدا حديث «بو عمير» معقولًا ... فلم يتحدَّث أحد بعدَه ... بل قاموا جميعًا ففكوا الخيمتَين وسرعان ما كانوا يتبعون «عميد» الذي بدا من بعيد كأنه طيف من الأطياف ... استمرَّ السير ساعات، وقد قربت المسافة بين السيارات والجمل السريع ... وقد كان على الشياطين أن يَدُوروا حول كثبان الرمال الكثيرة، بينما كان يتجاوزُها مسرعًا ... وأحسَّت «إلهام» المسئولة عن التموين بقلق وهي تنظر إلى عدادات الوقود؛ فقد كان مقدرًا أن تكفيَهم حتى الوصول إلى إحدى القريتين حيث يوجد الوقود في محطة رجال حرس الحدود ... ولكن ... هكذا قالت «إلهام» لنفسها: إذا استمرَّ السير بين الكثبان الرملية واللف والدوران بينها، فسوف يَنفد الوقود قبل أن يصلوا إلى حيث يريدون ... وفكَّرت أن من الأفضل الاكتفاء بسيارتَين ... ونقل الوقود من السيارة الثالثة ... ولكنَّها كتمت مخاوفها حتى ترى ما سيحدث في الساعات القادمة.

ارتفعت الشمس إلى وسط السماء ... واشتدَّت الحرارة، ومضى «عميد بن شعبان» بجمله لا يتوقف والسيارات الثلاث تتبعه حتى أشرفت الساعة على الثالثة بعد الظهر ... وتوقَّف «عميد» عند قاعدة جبل ... وعرف الشياطين أنهم وصلوا إلى بداية سلسلة جبال تيبستي ... ولحقوا بالطارقي الأبيض الذي وقف بجوار جملِه ... قال «عميد» عندما توقفت السيارات بجواره: سنرتاح ساعتَين ثم نُعاود المسير.

قال «أحمد»: ولكن تستطيع السيارات عبور هذه الجبال.

عميد: هناك دروب ممهَّدة في الجبال لا يَعرفها سواي ... وسوف أدلُّكم عليها؛ فهي تُوفِّر نصف الطريق.

بعد ساعة تقريبًا كان الغداء جاهزًا ... والتفَّ الجميع حوله ... ولا تدري «إلهام» لماذا أحسَّت أن «عميد» يرمقها بتأمُّل ... وأحسَّت برعدة تسري في جسمها عندما التقت عيناها بعينيه ... ولكنها بدت ثابتة تمامًا وهي تتحدَّث معه ... لقد اتفق الشياطين بالنظرات والإشارات أن يُناقشوا «عميد» في معلوماته عن دائرة العدم والقوافل التي لا تعود.

قالت «إلهام»: لقد سمعنا عن أحداث غريبة تحدث في هذه المنطقة ... هل سمعتَ عنها يا سيد «عميد»؟

مرةً أخرى لمعت في عينَي الطارقي هذه النظرة الباردة النفَّاذة التي يخفيها خلف قناع من الحزن وقال: نعم!

كانت إجابته مفاجأةً للشياطين ... فقد توقَّعُوا جميعًا أن يُنكِر معرفته بها ... وتدخل «أحمد» قائلًا: ... هذه القبائل التي اختفت ... والقوافل التي لا تعود؟

مرة أخرى رد «عميد» بنفس الكلمة: نعم.

وساد الصمت لحظات والأيدي ذاهبة عائدة بالطعام، وتَظاهر الشياطين بأنهم اكتفَوا بهذه الإجابة المختصَرة، ولكن «هدى» أضافت: لقد سمعنا أنها من عمل الجن والشياطين.

رد «عميد»: عِلمُ ذلك عند ربي ... لا أحد يعرف.

زبيدة: ألم تُقابل هذه القوافل قبل أن تَختفيَ كما قابلتَنا؟

كان السؤال مفاجئًا، ويَحمل معنًى خاصًّا، ولكن الطارقي لم يُبدِ أيَّ اكتراث ... وقال: قابلتُ بعضهم بالصدفة.

كانت إجاباته مختصَرة حاسمة، ولكن «مصباح» سأل: هل سنَجد معلومات أكثر في كومو؟!

عميد: ربما!

وساد الصمت وأدرك الشياطين أنَّ «عميد» لن يقول أكثر مما قال ... فاختار كلٌّ منهم مكانًا للراحة ... بينما أخرج «عميد» غليونه البدوي الطويل واتَّكأ على صخرة، وأخذ يُدخِّن في صمت.

نظر «أحمد» في ساعته ... كانت قد انقضت ساعتان منذ توقفوا للراحة ... ولدهشة «أحمد» الشديدة وجد الطارقي المتَّشح بالبياض يقف فجأةً معلنًا بداية الرحيل ... لقد حسب الوقت بالضبط دون أن يحمل ساعة ... وكان «أحمد» يعرف أن هؤلاء البدو يَحسبون الزمن بالشمس ... وأنهم لا يُخطئون.

بدأت الرحلة داخل جبال تيبستي الموحشة، المكوَّنة من البازلت الأسود والجرانيت الوردي، وقد بدَت في وديانها البيضاء آثارُ سيول الأمطار ... كان الشياطين مُتنبِّهين تمامًا إلى أنَّ «عميد» قد يقودهم إلى فخ ... لهذا رسموا خطتهم على ترك آثار واضحة يعودون عن طريقها ... إذا فكر الطارقي الملثَّم أن يَخدعهم. كان «أحمد» أكثرهم إدراكًا للمخاطر التي قد يتعرَّضون لها ... ولكن المخاطر لم تكن الشيء الذي يُثني الشياطين عن عزمهم ... ولكن عندما بدأت الجبال يَتزايد ارتفاعها أشار «أحمد» إلى «إلهام» أن تتَّصل لا سلكيًّا بالمقر السرِّي للشياطين لإبلاغ رقم «صفر» بمكانهم ... وبالتطورات التي حدثَت.

وتوقفت «إلهام» عند سيارة اللاسلكي ثم بدأت الاتصال ... ولكن ما سمعتْه أفزعها ... كانت هناك موجة قوية للتشويش قد سُلِّطت على الإرسال، ولم يكن في إمكانها أن تسمع شيئًا إلا صوتًا متصلًا يشبه هدير البحر ... وأدركت «إلهام» أن جهازًا قويًّا للتشويش على الاتصالات اللاسلكية قريب منهم، وأنَّ الطارقيَّ «عميد بن شعبان» قد قادهم إلى حيث لا يَتمكَّنون من الاتصال مطلقًا بالعالم الخارجي ... وتذكَّرت القوافل السابقة. وكيف انقطع الاتصال بها واختفَت دون أن تترك أثرًا ... وتطلَّعت إلى وجه «أحمد» وكان واضحًا أنه أدرك كل شيء.

في مصيدة التيبستي الموحشة

فجأةً هبَّت ريح عاصفة شملت الجبل الشامخ ... وكان «أحمد» قد أطلق نفير السيارة محذرًا السيارتين اللتَين كانتا تتلويان صعودًا خلف «عميد» ... ثم أخرج بندقيته وارتكز على ركبته ... لقد قرر أن يُصيب «عميد» دون أن يقتله وأن يستجوبه فيما فعل ... ولكن الطارقي الأبيض نظر خلفه نظرة خاطفة ... ثم انعطف داخل أحد المنحنيات واختفى.

قفز «أحمد» إلى السيارة وخلفه «إلهام» وأطلق للسيارة العنان محاولًا اللحاق بالطارقي الفارِّ ... ولحق بالسيارتين ثم تجاوزهما في منطقة وعرة شديدة الخطورة، ثم انثنى حيث اختفى «عميد» ... ولكن قبل أن يُدرك طبيعة الطريق اصطدمت السيارة بجدار من الجرانيت واهتزت بشدة، ثم ترنحت متراجعة وكادت تسقط من ارتفاع مئات الأمتار ... ولكن «أحمد» استطاع السيطرة عليها وإيقافها ... وعندما نزل هو و«إلهام» أدركا أن السيارة أصابها عطب شديد لا يُمكن إصلاحه ... وكان صوت الصدمة القوية قد انفجر في الصمت، وردَّدته جدران الجبال الجرانيتية.

وصل «بو عمير» و«زبيدة» ... ثم «مصباح» و«هدى» ... وترجَّل الأربعة ... وكان «أحمد» و«إلهام» يتحدثان، كان «أحمد» يُريد أن يتبع الطارقي جريًا على قدمَيه ... وكانت «إلهام» تُحاول إثناءه عن عزمه ... وعندما وصل بقية الشياطين تقرَّر بسرعة أن يجري «أحمد» و«بو عمير» معًا خلف «عميد» ... وهكذا انطلقا مسرعَين فوق الأرض الصخرية الوعرة ومعهما «جولد» ... كان الكلب يتشمَّم الطريق ويجري وهما خلفه ... ومضت نصف ساعة في مطاردة الرجل الذي اختفى دون أن يَريا له أثرًا ... وإن كان الكلب «جولد» يمضي مسرعًا بين الدروب الصخرية، ثم ينثني لينتظر «أحمد» و«بو عمير».

كانت الريح قد اشتدَّت وتجمَّعت السحب السوداء وغطت الجبال حتى بدَت كملاءة سوداء ... ثم انفجر غضب السماء في سيل من الأمطار الغزيرة التي لم يشهد الشياطين

مثلها أبدًا ... واضطر «أحمد» و«بو عمير» و«جولد» أن يأووا إلى كهف. وكانت المياه تسقط أمامهم كالشلالات تجرف في طريقها كل شيء ... وتصور «أحمد» مكان السيارات ... وأدرك أن خطرًا رهيبًا يَحيق بهم في هذا المكان ... فمن المؤكَّد أن هذا السيل المتدفِّق يمكنه أن يجرف السيارات الثلاث إلى قاع الجبل.

استمر السيل المتدفِّق حتى هبط الليل دون أن يتمكن «بو عمير» و«أحمد» و«جولد» من مغادرة المغارة التي أووا إليها، وقال «أحمد»: إننا سنضطر للبقاء في المغارة إلى الصباح، فمن العبث الخروج الآن تحت هذا السيل الفظيع.

وهكذا بدأ الليل الطويل البارد ... و«أحمد» و«بو عمير» جالسَين على الأرض وقد أسندا ظهريهما إلى الجدار الصخري ... والأفكار السوداء تمرُّ برأسَيهما المتعبَين ... لقد استطاع الطارقي «عميد» أن يجرَّهم جميعًا إلى فخِّ الجبال السوداء ... وأكملت الطبيعة المهمَّة فعزلتهم عن بعضهم ... بالمطر الدافق والليل الأسود.

انقطع المطر حوالي منتصف الليل ... وساد الجبال والوديان صمت عميق موحش وخُيِّل لـ «أحمد» و«بو عمير» أنهما سمعا في ذلك الوقت صوت صراع بعيد ... كان شخصان يتصارعان على الصخور ... قال «بو عمير»: هيا نخرج!

رد «أحمد»: إن الأرض زلقة ... وأخشى أن نسقط من هذا الارتفاع الشاهق.

بو عمير: إني أسمع صوت عراك بعيد.

أحمد: وأنا أيضًا.

بو عمير: إذن هيا بنا.

كان «جولد» يقف بباب المغارة وقد رفَع أذنَيه كالرادار ... وبدا مهتاجًا ... فما كاد يرى «أحمد» و«بو عمير» يستعدَّان لمغادرة المكان حتى اندفع إلى الأمام ... وعندما خرج «أحمد» و«بو عمير» فوجئا بأن السماء قد صفَت ... ولم يَعُد هناك أثر للسحاب الأسود ... وعلى ضوء النجوم البعيدة كانت الصخور تلمع بعد أن غسلتْها مياه المطر الدافقة، وأخذا يتنقَّلان بحذر بين الصخور، يتبعان «جولد» الذي كان يسبقهما بمسافة واسعة.

استمرا يسيران حتى دارا حول قمة الجبل الذي كانا قد وصلا إليه. وبدأ الطريق الهابط إلى الوادي حيث كانت السيارات ... ولم يكن في إمكانهما أن يَريا ما حدث لها ... وإن كان «أحمد» واثقًا أن السيول المتدفقة قد جرفتها ... وقد تحقَّقت مخاوفُه عندما وصَلا إلى حيث كانت السيارات فلم يجدوا أثرًا لها.

وضع «بو عمير» يده على فمِه ثم أطلق صيحة عالية تردَّدت في طيات الوادي الصامت وبعد أن سكت الصدى ... تردَّدت صيحة أخرى على يمينَيهما ... ثم سمعا صوت طلقة

رصاص وعواء كلب وعاد الصمت من جديد ... وعاد «بو عمير» يُطلق صيحة ثانية ... وترددت الصيحة وسكنت ثم جاءت صرخة ثانية من نفس المكان.

فقال «بو عمير»: الصيحة من هذا الاتجاه.

وأشار بيده، فاتجها مسرعين ... وكان «جولد» قد اختفى تمامًا عن ناظرَيهما ... كانا يسيران ببطء شديد، ثم دارا حول صخرية عالية. وشاهدا ضوءًا يدور بين الصخور ... قال «أحمد»: إنها بطارية أحد الشياطين.

لم يكن مع «أحمد» و«بو عمير» بطارية ... فعاود «بو عمير» إطلاق صيحاته ليدلَّ على اتجاههما ... وأخذت المسافة تضيق تدريجيًّا حتى التقى الشياطين جميعًا عند حافَة أحد الوديان الذي تحوَّل بفعل السيول إلى بحيرة من الماء.

كان في اللقاء مفاجأةٌ غير متوقَّعة للطرفين ... فلم تكن «إلهام» موجودة ... وكان «أحمد» أسبق المتحدثين فقال: أين «إلهام»؟

ردت «زبيدة» بقلق: لقد ظننا أنها لحقت بكما!

أحمد: أبدًا!

زبيدة: لقد حاولت أن تتبعَكُما بسيارة اللاسلكي ... وانحرفت بين صخرتين كبيرتين واختفت، وبعدها لم نرها وظننا أنها لحقت بكما.

بو عمير: هل أنتم الذين أطلقتم الرصاص منذ نحو نصف ساعة؟

مصباح: لا ... لم نُطلق رصاصًا، لقد ظننا أنكم أنتم!

بو عمير: هذا ما ظننته ... فقد كان صوت الطلقة مختلفًا عن النوع الذي نستخدمه.

هدى: لا بد أنه الطارقي «عميد بن شعبان».

بو عمير: ربما.

وساد الصمت وقال «أحمد»: إن «جولد» هو الآخر قد اختفى!

بو عمير: لقد سبَقَنا بمسافة كبيرة ... وقد سمعت عواءه بعد طلقة الرصاص ولعله أصيب.

أحمد: والسيارة الباقية؟!

مصباح: لقد جرفتها السيول إلى بطن الوادي.

أحمد: لقد فقدنا السيارات الثلاث ... واختفت «إلهام» و«جولد» ... إنها نتيجة محزنة!

ساد الصمت لحظات ثم قال «أحمد»: سندخل إحدى المغارات للحديث وقضاء الليل حتى يطلع النهار.

هدى: في هذا الجانب مغارة كبيرة، كنا قد لجأنا إليها.

وفي صمت حزين ساروا حتى دخلوا المغارة، وبعد أن حدَّدوا أماكن جلوسهم على ضوء البطاريات ... أطفئوها ... وساد الظلام ... والصمت ... وغرقَ كلٌّ منهم في أفكاره وخواطره ... كانوا جميعًا منزعجين على غياب «إلهام» ... وبالطبع كان أكثرهم انزعاجًا «أحمد»؛ لقد كانت «إلهام» بالنسبة له أكثر من زميلة في فريق الشياطين الـ ١٣ ... كانت حبيبة قلبِه ... وكان يعرف أنها كبقية الشياطين فتاة شُجاعة ومغامرة من الدرجة الأولى لا يسهل التغلب عليها ... ولكنه اعترف بينه وبين نفسه أن الظروف التي يمرون بها من أغرب الظروف ... فهم يُحاولون اكتشاف قوة خفية لا أحد يعرف عنها شيئًا ... وفجأة قفز إلى ذهنه ما جرى للاسلكي ... إن التشويش على الإرسال اللاسلكي يحتاج إلى أجهزة عِلمية متقدِّمة جدًّا ... إذن فهذه القوة الخفية التي تربض في قلب هذه الصحراء القاحلة قوة متحضِّرة ... تديرها شخصيات علمية ... ولكن ماذا تفعل هذه الشخصيات في هذا المكان؟!

وقطع «أحمد» الصمت ... فنقل أفكاره إلى بقية الشياطين وقالت «زبيدة»: لا تنس يا «أحمد» أن معلومات رقم «صفر» كانت تتضمَّن أن العلماء يؤكدون وجود مواد مشعة في هذه المنطقة ... ربما يورانيوم مثلًا وهو المادة الأساسية التي تُصنع منها القنابل الذرية.

أحمد: هل تَعنين بهذا أن وراء هذه القوة الخفية دولة كبرى؟!

زبيدة: هذا مُمكن جدًّا!

أحمد: ولكن كيف لم تتمكَّن مخابرات الدول الأخرى من تتبُّع آثار هذه القوة وكشف حقيقتها؟!

هدى: من الواضح أن هذه القوَّة الخَفية تَختفي وراء أستارٍ كثيفة لا يُمكن لأحدٍ التسلُّل إلى أسرارها ... بدليل أنَّ كل محاولة للكشف عنها انتهت ليس بالفشل فقط ... ولكن بالاختِفاء تمامًا.

بو عمير: هل اختفَتِ القوافل والسيارات كما نختفي نحن الآن؟

كانت هذه الفكرة تدور في رءوس الشياطين الخمسة ... إنهم فعلًا يمكن أن يَختفُوا إلى الأبد في دهاليز وكهوف جبال تيبستي الموحشة دون أن يعثر عليهم أحد ... وتتلاشى محاولة أخرى من المحاولات التي بذلها العالم لاكتشاف حقيقة هذه القوة الخفية التي اختارت مجالًا لنشاطها الصحراء الكبرى ... أكبر صحراء في العالم ... حيث ما زالت أكبر مساحة منها بلا اكتشاف.

هدى: وهل الطارقي «عميد بن شعبان» يعمل مع هذه القوة؟ ... إنه شيء مدهش أن تستعين هذه القوة المتحضِّرة بهذا الطارقي الخشن لتنفيذ خططها!

أحمد: لا تنسَي يا «هدى» أننا حتى الآن لم نتأكد من شخصية «عميد» الغامضة ... وفي نفس الوقت لقد نجح هذا الرجل في تضليلنا، وقد أدخلنا فخ جبال تيبستي ببساطة شديدة.

مصباح: والآن ... ما هي خطتنا القادمة؟!

أحمد: إن أول ما سنفعله في الصباح هو أن نَنقسم إلى فرقتين، فرقة منَّا تُحاول إنقاذ بعض المهمات والأطعمة من السيارات الثلاث ... وقد تَستطيع أن تُصلح إحدى السيارات، وسترأس أنت هذه الفرقة يا «مصباح» ومعك «بو عمير» و«هدى»، أما أنا و«زبيدة» فسوف نبدأ البحث عن «إلهام» و«جولد».

بو عمير: إن اختفاء «إلهام» شيء غريب! ولكن الأغرب منه اختفاء «جولد». وإني أعتقد أنه أصيب بطلقة رصاص ... فقد سمعتُ عُواءه بعد الطلقة مباشرةً، ومعنى ذلك أن «عميد بن شعبان» قريب منَّا.

أحمد: إنَّني أريد أن أضيف شيئًا آخر ... إنَّ «عميد» ليس وحده في منطقة الجبال الآن ... إن هناك مُساعدين له ... ولا أدري ما هي خطتهم بالنسبة لنا ... ولكن تفكيري يقودني إلى احتمال مُخيف.

وصمَتَ «أحمد» لحظات، ثم قال: إننا قد نُخطَف جميعًا كما خُطفت «إلهام» ... واحدًا إثر آخر!

قالت «زبيدة» بجزع: هل تعتقد أن «إلهام» خُطفت؟! كنت أظن أنها مُختفية في مكان قريب ... وسنعثُر عليها في الصباح.

أحمد: قلبي يُحدثني أنها خُطفت ... فلم تخفَ عنِّي نظرات «عميد» إليها عندما كنا نتناول غداءنا.

شاي ورصاص

انقضت ليلة سيئة على الشياطين الخمسة في الكهف البارد ... ولم يَكدْ ضوء الفجر ينتشر حتى تسابقوا للخروج ... كان الكهف يقع عند منتصف جبلٍ شاهقٍ ويَمتدُّ تحته الطريق الذي كان تسير عليه السيارات ... ومن أول نظرة كان واضحًا أنَّ الشياطين فقدوا السيارة الثالثة ... فقد كانت محطمة وقد أغرقتْها المياه ...

ولم يكن هناك وقتٌ ليضيع ... وحسب الاتِّفاق أسرع «مصباح» يتبعه «بو عمير» و«هدى» ينزلون الطريق إلى حيث كانت السيارة الغارقة ... بينما اتجه «أحمد» و«زبيدة» إلى فوق حيث كانت السيارة التي يقودها «أحمد» واصطدمت بالصخور ... وحيث اختفى الطارقي «عميد بن شعبان».

كان «أحمد» متأكدًا أن «عميد» لم يَبتعد كثيرًا ... فلا بد أن العاصفة عوَّقتْه كما عوقتهم وأنه قريب منهم ... وإن كان على جمله أسرع منهم خاصةً بعد أن فقدوا السيارات الثلاث.

استطاع «أحمد» أن يتذكَّر الطريق حتى وصل إلى السيارة. وفحَصَها سريعًا، ثم قال موجهًا حديثه لـ «زبيدة»: لحسن الحظ من الممكن إصلاحها ... لقد تحطَّم جهاز التبريد وانفجرت إحدى العجلات ... ولكن يمكن نقل جهاز تبريد آخر من السيارة الغارقة، واستبدال العجلة.

زبيدة: ما رأيك في لقمة سريعة؟!

أحمد: أعدِّي أنت بعض الشطائر بينما أتجوَّل.

وأخرجت «زبيدة» صندوق المواد الغذائية من السيارة وبدأت بسرعة إعداد بعض الشطائر بينما تسلَّق «أحمد» الصخور وأخذ يبحث ... وفجأةً سمع صوتًا قريبًا ... أشبه بأنَّات شخصٍ جريح ... وأرهف «أحمد» سمعَه ... كان الصوت يأتي من خلف مجموعة

من الصخور المدبَّبة ... وسرعان ما كان «أحمد» يقفز خلفها ... ولم يكد يستقر على الأرض حتى شاهد الكلب «جولد» ... كان مُمددًا على الأرض وقد غرق في مياه الأمطار ... واقترب منه «أحمد» مُسرعًا وجرَّه بعيدًا عن المياه ... كان «جولد» حيًّا ولكن مصابًا بطلقة نارية في رقبته ... وقد نزَف كثيرًا ... وبين أنيابه كانت قطعة من ثياب الطارقي البيضاء، وأدرك «أحمد» كل شيء ... لقد لحق «جولد» بالرجل واشتبك معه في صراع، انتهى بطلقة الرصاص ...

وأحسَّ «أحمد» بغضب شديد على «عميد» ... لقد ضلَّلهم واختفت «إلهام» ... وأصاب «جولد» ... وتمنَّى أن يقابل الطارقي مرةً أخرى ليُصفِّيَ حسابَه معه ... وسمع «أحمد» صوت «زبيدة» تُناديه ... فناداها ... وحضرت مُسرعة ... وطلب منها مساعدته على حمل «جولد» سريعًا إلى قربِ السيارة لإجراء الإسعافات اللازمة.

وتعاونا على حمله، كان الكلب ثقيلًا والطريق وعرًا، ولكنهما نجَحا في حمله إلى السيارة، وأسرعت «زبيدة» تقوم بمهمَّتها التي تمرَّنت عليها كثيرًا ... الإسعافات ... ولم تتردَّد في إجراء عملية للكلب الشجاع بعد تخديره، واستخرجت الرصاصة من عنقه، ثم ربطت الجرح ... وأشعلت قرصًا من أقراص السبرتو المُتجمِّد ... وهي أقراص قابلة للاشتعال وتُعطي نارًا هادئة لمدة ربع ساعة ... وأعدَّت للكلب وجبة ساخنة ... وعندما أفاق من أثر المخدِّر وضعتها أمامه.

كان «أحمد» قلقًا ... فالوقت يمضي ولا أثر للطارقي، فهل ضاع أثر «إلهام» إلى الأبد؟!

كان يسأل نفسه هذا السؤال بينما كانت «إلهام» في هذه اللحظات قد أفاقت من نومها ... ووجدت نفسها جالسة في أحد الكهوف، وأمامها الطارقي «عميد بن شعبان» يُعدُّ إفطارًا.

وتذكرت «إلهام» ما حدث ... لقد أسرعت لنجدة «أحمد» بالسيارة، ودخلت بين صخرتَين كبيرتين، وتوقفت السيارة، وفجأةً وجدت الطارقي يقفز من خلف صخرة ثم ينقضُّ عليها قبل أن تتمكَّن من الدفاع عن نفسها ويصيبها بضربة من مسدَّسه على رأسها ... وذهبت في غيبوبة وعندما أفاقت وجدت نفسها في هذا الكهف وفيه قُيِّدت وتكوَّمت بجوار جدارٍ صخري ... بينما «عميد» يجلس أمامها هادئًا وقد وضع غليونه الطويل بين أسناه وأخذ يُدخِّن في صمت وهو يعدُّ الإفطار.

وبدأ الطارقي بالكلام ... فقال لها إنَّ أصدقاءها لن يَخرُجوا مطلقًا من الفخ الذي نصبَه لهم. وحتى إذا تمكَّنوا من الخروج فسوف تتكفَّل القوة الخفية بإبادتهم تمامًا ... ولن يعثر لهم أحد على أثر.

وسكت «عميد» قليلًا ثمَّ استطرد الحديث، فقال لها إنه مُعجَب بها لهذا سيأخُذُها معه إلى مقر القوة الخفية، حيث تعيش هناك إلى آخر عمرها دون أن تتمكَّن من العودة إلى العالَم مرةً أخرى.

وكانت «إلهام» تُنصِت إلى حديثه والآلام تَعصِف بها ... آلام الجسد في رأسها وفي يدَيها وساقَيها ... آلام النفس بعيدًا عن زملائها وعن «أحمد»، وأكثر من كل هذا فشلهم في الكشف عن حقيقة القوة الخفية التي استطاعت فعلًا الانتصار على كلِّ المحاولات التي بُذلَت لكشف أسرارها.

قال «عميد»: هل تُفطِرين؟

كانت جائعة وفكَّرت أن الطعام سيردُّ لها بعض قواها، فهزت رأسها موافقة ... وابتسم «عميد» قائلًا: هذا عين العقل، دعكِ من هؤلاء الشباب الذين كانوا معك واتبعيني ... سوف نعيش حياة رائعة ... ستتمتَّعين بكل شيء تحلُمين به من ثياب ومجوهرات ... وستُشاهدين مناظر لم تقَع عليها عينك من قبل!

ولم تردَّ «إلهام» ... وتمنَّت لو لم تكن مقيَّدة حتى تُفهم هذا الطارقي مَن هم الشياطين ... أطفال! هؤلاء الذين خاضوا المغامرات الرهيبة، وقضَوا على جبابرة الإجرام، أطفال؟!

قال «عميد»: سأفكُّ قيودك ... وعِديني ألا تُحاولي الهرب ... وعلى كل حال، لعلَّ هذا المسدس الذي لن أتردَّد في إطلاقه يكفي لمنعك من أيِّ محاولة لكشف مكاننا ... سوف نَرحل بعد قليل.

وفكَّ قيودَها بيده، وهو يُمسك بالمسدس باليد الأخرى ... ووقفت «إلهام» وتمطَّت لتُعيد الدماء إلى أعضائها اليابسة. ثم مدَّت يدها إلى الطعام فتناولته في صمت، وعندما قدَّم لها الطارقي كوب الشاي اعترفت بينها وبين نفسها أنه أمتع كوب شاي تناولتْه في حياتها ... أولًا لأنه مصنوع بطريقة مُمتازة ... ثانيًا لأنها كانت في أشدِّ الحاجة إليه.

بدأ الاطمئنان يتسرَّب إلى نفس «عميد بن شعبان» عندما شاهد علامات الرضا على وجه «إلهام» ... وكانت «إلهام» قد استقرَّت على رأي ... أن تُجاريَ «عميد» لعلها تصل إلى معلومات تَستفيد منها لإنقاذ الشياطين ... وقد خطر لها والطارقي يفكُّ وثاقها أن تَشتبك معه ... وقد كانت الفرصة مهيَّأة ... ولكن النتيجة لم تكن مضمونة ... فهو مسلَّح جيدًا ... خاصة ذلك الخنجر الطويل المُتدلِّي على صدره.

سألته ببساطة: هل المكان الذي سنذهب إليه بعيد؟!

رد «عميد»: لا ... في وسط الجبال تقريبًا ... هناك مدخلٌ خفيٌّ لا يُمكن اكتشافه يُؤدي إلى مدخل الواحة المفقودة حيث مقر القوة الخفية.

كانت هذه أول معلومة تعرفها «إلهام» عن مقر القوة الخفية ... واحة مفقودة!

وتساءلت: لا أفهم ما تقصد بالواحة المفقودة؟!

أخذ «عميد» ينظر إلى «إلهام» في هدوء وعمق ... بينما دخان غليونه يتصاعَد في حلقات إلى سقف الكهف، ثم قال: لا داعيَ لأن تعرفي شيئًا عنها ... إن من يعرف شيئًا عن الواحة وليس من سُكانها فلا بدَّ أن يموت!

أدركت «إلهام» أنها لن تصل إلى معلومات أكثر من الطارقي ... وأخذت تتأمَّل جلسته ... ويده اليُمنى تقبض على المسدس ... إن المسافة بينها وبينه لا تزيد عن ثلاثة أمتار ... وفي إمكانها بقفزة واحدة أن تَشتبك معه ... ولكن لا بد من ضمان أن تفوز وتصل إلى زملائها ... وإلى «أحمد» ... فهذه المعلومات عن الواحة بالنسبة لهم كالعثور على باب الكنز ... وقرَّرت أن تَنتظِر فرصة أخرى ...

انتهى «عميد بن شعبان» من شرب كوب الشاي ... ثم أشعل غليونه مرةً أخرى ومضى يُدخِّن بهدوء ... وقالت «إلهام»: متى نخرج؟!

رد «عميد» وهو يُطلق دخان غليونه في تكاسُل: عندما يَحضُر زملائي.

كانت هذه مُفاجأةً ثانية لـ «إلهام» ... إن لـ «عميد» زملاء سيَحضرون واستطرد «عميد» يقول: إننا لن نستطيع أن نعود إلى الواحة إلا بعد أن نتأكَّد من القضاء على هؤلاء الأطفال.

وأحسَّت «إلهام» برعدة في جسدها ... ولكنها تمالكَت نفسها ... لم يَعُد هناك مجالٌ للتردُّد ... يجب المغامرة فورًا قبل القضاء على الشياطين الخمسة ... إنها أملهم الوحيد الآن ... وبطرف عينها أخذت تنظر حولها ... كانت هناك قِطَع من الصخور متناثرة هنا وهناك ... واستقر رأيها أن تكون قطعة من هذه الصخور هي سلاحها ... إن ما يُهمُّها هو تجريد «عميد» من مسدَّسه ... وأن تكون بعيدة عن مدى إطلاقه ...

وتظاهَرت أنها تُغيِّر جلستها ومدَّت يدها بجوارها ... كانت هناك قطعة من الصخر قريبة من أصابعها ... وأخذت تمدُّ أصابعها دون أن تُحرِّك جسمها ... وفي نفس الوقت كانت تنظر إلى «عميد» ولاحظت في عينيه نظرةً غريبة ... هل عرف ما تُفكِّر فيه؟! هل لاحظ ما تفعله؟! وكانت أصابعها قد قبضت على قطعة الصخر ... واستجمعت قوتها ودقَّتها في التصويب، ثم قذفت بقطعة الصخر إلى وجه «عميد»، وارتمَت في نفس الوقت جانبًا، فقد كانت تعرف أنه سيُطلِق النار مباشرةً.

تمَّ كل شيء في ثوانٍ قليلة ... أصاب الحجر وجه «عميد» ... وأطلق الرصاص، وقفزت «إلهام» جانبًا، ثم وقفت بسرعة البرق وضربت المسدس من يد «عميد» فسقط على الأرض

وانحنَت مسرعة لتلتقطَه، ولكن «عميد» رغم المفاجأة والجرح قفز في نفس الوقت مُحاوِلًا منعها من الوصول إلى المسدس.

كانت خطة «إلهام» ألا تلتحم معه؛ فهو بالتأكيد أقوى منها، ولكن وهو بعيد عنها يُمكن مصارعته ... وهكذا ضربت المسدس بقدمها فطار بعيدًا في ظلام الكهف، وطوَّحت ذراعها في ضربة قوية أصابت رقبة «عميد» ... فتراجع إلى الخلف مذهولًا ... وقد انحبسَ الهواء في صدره وأحسَّ أنه سيَنفجِر، ومدَّ يده واستلَّ خنجره، ولكن «إلهام» لم تُمهلْه ... ومرةً أخرى طوَّحت بقدمها في ضربة محكمة أصابت يده والخنجر الذي أحسَّت أنه جرَحَها ... ولكن الضربة حقَّقت هدفها ... وطار الخنجر بعيدًا ... وبسرعة البرق اندفعت من الكهف خارجة إلى نور الصباح ... وخلفها كان «عميد» يَجري كالمجنون.

جرت «إلهام» مسرعةً ... وكم كانت مفاجأةً قاسية لها أن شاهدت رجلين من الطوارق يتقدمان من الكهف مُسرعَين على الأقدام ... وأدركت بالطبع أنهما زميلا «عميد» اللذان كان في انتظارهما ... وعرفت أنها مُحاصَرة بين الرجلين و«عميد» ... وشاهدت بندقية تَرتفع في يد أحدهما ... ولم يكن أمامها إلا حلٌّ واحد ... كان أمامها صخرة كبيرة مُنحدِرة ... لم تجفَّ المياه عليها بعد ... وهكذا ودون أي تردُّد ألقَت بنفسها على الصخرة الكبيرة ... وانزلقت كالصابونة على جانبها ... وظلت تنزلق مندفعة إلى أسفل، وهي تسمع طلقات الرصاص تتبعها وتُصيب الصخر خلفها.

استمرَّت تنزلق دقيقة كاملة ... فقد كانت الصخرة عالية ... وأخيرًا ارتطمت بالأرض ... وأحسَّت بقدمها تَلتوي تحتها ... ورفعت رأسها إلى فوق، وشاهدت أحد الطوارق الثلاثة في ملابسه البيضاء يُصوِّب بندقية إلى أسفل ليُطلِق النار عليها.

وفي تلك اللحظة وقد أصبح الموت وشيكًا ... سمعت طلقة واحدة ... وهوى الطارقي من فوق الصخرة، وسقط يتدحرَج وقد سبقتْه بندقيته ...

الحل في فم «جولد»

على بُعد نحو خمسين مترًا لمحت «إلهام» «أحمد» و«زبيدة» يتسلَّقان الصخور في الطريق إليها. وكانا يَمشيان خطوات ثم يختفيان، ويطلقان الرصاص ... وكان «عميد» وزميله الطارقي يُبادلانهما الطلقات ... وجرَّت نفسها جانبًا حتى اختفت خلف صخرة بارزة حتى لا تكون هدفًا لطلقات الطارقيَّين ... ولاحظت أن «أحمد» يتقدم وتَحميه «زبيدة» ... ثم تتقدم «زبيدة» ويحميها «أحمد» ... وقالت في نفسها ... إنهما مُذاكران جيدًا تعليمات المطاردات بالرصاص كما درساها في المقر السرِّي.

وفجأةً سمعت صوت انهيار فوقها ... ثمَّ شاهدت على مسافة قريبة جسدًا متشحًا بالبياض يسقط ... وأدركت أن «أحمد» أو «زبيدة» قد أصابه ... هل كان «عميد» أم زميله؟! لم يكن في إمكانها أن تعرف.

وتوقف إطلاق الرصاص وسكَت الصدى العنيف ... إنَّ الطارقي الباقي قد آثَرَ الفرار ... وخرجت من مخبئها ... ووجدت نفسها فجأةً أمام «أحمد» ... واندفع إليها الشابُّ الوسيم وقد التمعت في عينَيه نظرة حبٍّ هزَّت كيانها ... ومدَّت يدَيها إليه وتشابكت الأيدي في عنف عاطفي وجذبها لتقف ... ولكنها لم تستطع الوقوف ... كانت قدمها تُؤلِمُها ... وارتكز «أحمد» على ركبتَيه وأخذ رأسها بين ذراعيه ... والتصقَ رأسُها بصدرِه ... وأحسَّت أنها تريد أن تبكي ... فقد شعرت بسعادة أكبر من الفرح. سعادة طاغية ... وقد أحاط بهما الصمت الشامل ...

قال «أحمد»: ماذا حدث؟

وروت له بسرعة ما جرى بينها وبين «عميد» ... والمعلومات القليلة التي حصلت عليها منه ... ونسي «أحمد» عواطفه، وعاد للواقع، إنهم مُحاصَرون في وادي الموت بين سلاسل جبال تيبستي الموحشة ... وقد أزالت سيول الأمطار العلامات التي كانوا يَعتمدون عليها في

العودة ... وربما كانوا الآن محاطين بعشرات من الطوارق مُنبثِّين بين الصخور يَستعدُّون للانقضاض عليهم بين لحظة وأخرى.

وربما كانت القوة الخفية تستعدُّ الآن للانقضاض عليهم ... وسحب ذراعَيه وأمسك بقدمها الملتوية، وفي هذه اللحظة ظهرت «زبيدة»، وأسرعت تَحتضِن «إلهام»، وترك لها «أحمد» مهمَّة معالجة قدم «إلهام»، ووقف وأخذ ينظر حوله. ورأى الطارقيَّين اللذَين وقَعا، وقرَّر أن يتأكد إذا كان أحدهما «عميد». وأسرع إليهما. لم يكن «عميد» بينهما، ولم يتردَّد «أحمد» ... أخذ يُفتِّشهما بدقة لعله يَعثُر معهما على شيء يُنير الطريق في مصيدة جبال تيبستي الموحشة.

كانا مسلَّحَين ووضَعَ كلٌّ منهما في جيبه كمية من الدخان ... ولدهشته الشديدة وجد مع كلٍّ منهما أيقونة مستديرة معلَّقة في الرقبة بسلسلة من الذهب الخالص ... وفتح «أحمد» إحدى الأيقونتَين ... ووجد فيها صورة لسيدة جميلة قد وضَعَت على رأسها تاجًا من الذهب والجواهر ... وفتح الأيقونة الأخرى ... ووجد نفس الصورة ... هل هذه السيدة الملكة هي زعيمة القوة الخفية؟!

وفحص الأيقونتَين فحصًا دقيقًا ... ووجد على ظهرها كتابة بلغة لا يَعرفها ... وليست بالتأكيد إحدى اللغات اللاتينية ... فالأحرف مختلفة ... وعاود التفتيش ثانيةً ولكنه لم يجد شيئًا آخر ... ولكنه أثناء التفتيش شاهَدَ على ذراع أحد الرجلين وشمًا يُمثِّل نفس السيدة بتاجها الملكي ... وعلى ذراع الرجل الآخر وفي نفس المكان وجَدَ نفْس الوشم لنفس الملكة.

عاد «أحمد» إلى الفتاتَين ... كانت «زبيدة» قد دلَّكت قدم «إلهام» تدليكًا جيدًا ... وربطتها ... واستطاعت «إلهام» أن تقف وتسير مع عرج خفيف ... وأخذوا يهبطون الوادي للوصول إلى بقية الشياطين.

كان «بو عمير» و«مصباح» و«هدى» قد أخرجوا جميع مواد التموين من السيارات الثلاث وكوَّموها جانبًا ... وأخذوا في محاولة إصلاح سيارةٍ واحدةٍ بنقْل قِطَع غيار من السيارتين الأكثر عطبًا ...

واستقبل الشياطين الثلاثة «إلهام» بحماسة وفرح، وتبادلوا العناق والقبلات ... وتحدثت «زبيدة» عن نتيجة المعركة ... وكيف استطاعت هي و«أحمد» اصطياد اثنين من الطوارق ... وهرب الثالث.

قال «أحمد»: إنَّ الطارقيَّ الذي هرب هو «عميد بن شعبان».

بو عمير: ولماذا لم تُطارِدُوه؟

أحمد: إن المطاردة في هذه الجبال لا نتيجة لها ... وربما تكون نتيجتها الوحيدة أن يُصاب أحدنا أو يموت ... فهؤلاء الطوارق يعرفون الجبال جيدًا ... وفي إمكانهم الاختباء والاختفاء واصطيادنا. ونحن لا نعرف إذا كان «عميد» وحده أم معه آخرون غير اللذَين سقَطا.

مصباح: وما هي خطوتنا التالية؟

أحمد: هذا ما أريد أن نَعقِد اجتماعًا لأجله.

زبيدة: من فضلكم بعد أن نتناول إفطارنا!

وقامت «زبيدة» و«هدى» بإعداد الإفطار ... بينما جلست «إلهام» ترتاح ... وبعد أن انتهوا من تناول إفطارهم قال «أحمد»: إن المعلومات التي حصلت عليها «إلهام» على ضآلتها ذات أهمية عظمى بالنسبة لنا ... ففي مكان ما قريب واحة مفقودة يعيش أهلها حياةً غنية تحت سيطرة القوة الخفية ... وهذا ما نستنتجه من حديث «عميد» عن الحياة الجميلة والمجوهرات التي وعد «إلهام» بها. ثانيًا إن هذه الواحة لها مدخل موجود في وسط الجبال وهو مخفيٌّ بمهارة ... ثالثًا إن هؤلاء الطوارق يدينون بالولاء لملكة هذه صورتها.

ومدَّ «أحمد» يده بالأيقونتَين اللتين عثر عليهما مع الطارقيَّين ... وأخذ الشياطين يتأمَّلون الصورة في دهشة.

وعاد «أحمد» يقول: إننا مُعرَّضون لمخاطر كثيرة ... منها ألا نستطيع الخروج من هذا الوادي الذي تُحاصرُه الجبال، وتنفد مواد التموين ... ونموت جوعًا ... ومنها أن يُحاصرَنا طوارق أكثر منا عددًا حتى تنفد ذخيرتنا ...

وسكت «أحمد» لحظات ثم قال: وهناك الخطر الأكبر ... وهو القوة الخفية التي أعتقد أنها قوة علمية هائلة ... فنحن لم ننسَ أن هناك جهازَ تشويش يجعل استخدام اللاسلكي غير مُمكن ... وهذا يعني وجود أدوات عِلمية متطوِّرة ... هي التي تجعل القوة الخفية قادرةً على السيطرة على هذه المنطقة من العالم، وتمنع أيَّ جهود أو محاولات تُبذَل للكشف عنها.

كان الشياطين الستة يجلسون قرب مجموعة من الصخور الوردية ... وبجوارهم نبعُ ماء تكوَّن من مياه الأمطار ... كانت «هدى» تنظر في صفحة المياه ... وكان «أحمد» يستعدُّ لاستئناف حديثه عندما قالت «هدى» فجأةً ولكن بصوت هادئ: لا تتحرَّكوا من أماكنكم!

بدت الدهشة الشديدة على وجوه الشياطين الخمسة ... ولكنهم بقوا ساكنين ... ومضت «هدى» تقول: إنني أرى على صفحة المياه شخصًا يتحرَّك من بعيد ... إنه شبحٌ أبيض.

قال «بو عمير»: أحد الطوارق؟

هدى: إنه فوق رءوسنا تمامًا ... وهو يَحمل بندقية.

أحمد: لا أظن أنه سيطلق الرصاص ... لأنه قد يُصيب واحدًا منا، ثم نصطاده نحن ... إنه سيحاول إرهابنا ... دعُوه يُحاول فهو لا يعرفنا.

ولم ينتهِ «أحمد» من كلامه حتى سمعوا صوت «عميد» يقول: ارفعُوا أيديَكم جميعًا! ... إن أيَّ حركة معناها قتل واحد منكم.

قال «أحمد»: ارفعوا الأيدي.

وارتفعت اثنتا عشرة يدًا إلى فوق ... وأخذ الطارقيُّ الطويل القامة يَقترب وهو يسدد بندقيته السريعة الطلقات إليهم ... وعندما وقف كانت «هدى» أقرب الشياطين إليه، وفكرت بسرعة، ورفعت عينَيها إلى «أحمد»، ولكن نظرة تحذير لها جعلتْها توقف تنفيذ ما فكَّرت فيه.

قال «عميد» بصوت عميق: لقد قضيتُم على اثنين من زملائي ... وتلك جريمة لا يُمكن غفرانها ... إنكم مقضيٌّ عليكم بالفناء ... سواء اليوم أو غدًا، فلم يدخل وادي الموت شخصٌ وخرَج منه ... وقد سبقكم كثيرون.

كان هذا أول تصريح من «عميد» بحقيقة ما جرى لَمن سبَقَهم من بعثات.

وقال «عميد»: تعالَي هنا!

كان يوجه حديثه إلى «إلهام» ومضى يقول، وهو يضَع يده على الجرح الذي في وجهه: لقد خدعتِني مرةً ولن تخدعيني مرة أخرى!

وتقدمت «إلهام» بهدوء، ومدَّ الطارقي يده الطليقة وجذبها بعنف، وأدرك الشياطين ما ستفعله «إلهام» فانطرحوا أرضًا على الفور ... لأنَّ «إلهام» تظاهرَت أن الجذبة قد أفقدتها التوازن وسقطت فوق «عميد» فاختلَّ توازنه هو الآخر ... وفي اللحظة التالية كانت «هدى» قد طارت في الهواء وضربت الطارقيَّ الجريح بقدمها في رأسه ضربة قاسية ردَّد الصمت صداها كأنها طلقة مكتومة ...

وسقط الرجل على الأرض وهو يُطلق الرصاص ... ولكن في اللحظة التالية كان أسيرًا بين أيدي الشياطين الذين انتزعوا منه البندقية، وأحاطوا به.

أمسك «أحمد» البندقية يتأمَّلها ... كانت من نوعٍ مُمتاز لم يَسبق له أن رآه.

وقال «أحمد» موجهًا حديثه إلى «عميد»: هل أنتم الذين تصنَعُون هذه البنادق؟!

رد «عميد» بصوت غاضبٍ يقطر حقدًا: لا تُحاول أن تَحصل منِّي على أية معلومات.

أحمد: لعلَّ من الأفضل لك أن تدلَّنا على الطريق إلى واحتكم المجهولة!

ابتسم «عميد» وهو يتحسَّس وجهه الجريح وقال في تصميم: ذلك شيء لن يحدث أبدًا.

ساد الصمت بعد هذا الحوار القصير … وكانت عيون الشياطين تتأمَّل الطارقيَّ وهو يقف ينفضُ عن ثيابه ما علقَ بها من رمال … وعاود «أحمد» المحاوَلة قائلًا: إننا لسْنا مثل مَن سبَقنا من البعثات … ومن الأفضل لك أن تتكلَّم … لقد فشلتَ أنت وزميلاك في القضاء علينا.

عميد: سيأتي غيرنا … فمَوعِد عودتنا إلى الواحة قد اقترب … وما لم نَعُد في موعدنا فسوف يَخرُجون للبحث عنَّا … وستكون معهم أسلحة أشدُّ فتكًا … وسيكونون أكثر منكم بكثير … إنني أنصحكم بالاستِسلام الآن … وأعدكم أن آخذكم جميعًا إلى الواحة … وأترك للقيادة حرية التصرف معكم.

كان عرضًا مُغريًا … وبدأت عيون الشياطين تَلتقي في محاولة للتفاهم … وكان واضحًا أنهم ميَّالون إلى قبول العرض … ولكن شيئًا في نفس «أحمد» صدَّه عن القبول … إنهم بفرض أن «عميد» يَصدُقُهم القول سيدخلون إلى الواحة بلا أسلحة … ولعلَّهم يتمكَّنون من معرفة كل شيء عن القوة الخفية … ولكن ما الفائدة؟ … إنهم لن يَخرُجوا من الواحة مرةً أخرى إذا ظلُّوا أحياء … وستبقى القوة الخفية لغزًا بلا حلٍّ في نظر العالم الخارجي.

وفي هذه اللحظة حصل شيء مدهش … شاهد الشياطين الكلب «جولد» يُقبل مترنحًا من حيث تركه «أحمد» و«زبيدة» في الصباح … وكان يمسك بفمه حبلًا طويلًا في نهايته جمل مربوط … وبعدَه مباشرةً ظهر جملان آخران يَسيران خلف الجمل الذي يشدُّه الكلب «جولد».

وقال «مصباح» بانفعال: نستطيع الآن أن نعرف طريق الواحة.

نظر إليه الشياطين فاستطرد «مصباح» الحديث قائلًا: إنَّ الجمال بالتأكيد تعرف طريقها إلى الواحة.

ولمَعَت الفكرة في أذهان الشياطين جميعًا … وتوتَّر وجه «عميد» بالغضب …

خطر في كل مكان

ظلَّ «جولد» يتقدم وهو يمسك بمِقوَد الجمل حتى وصل إلى الشياطين. وتقدَّم «بو عمير» منه وأخذ يُربِّت على ظهره، بينما أسرعت «هدى» بإعداد وجبة دسمة له ... وكان ذهن «أحمد» يعمل بسرعة رهيبة ... إن فكرة استخدام الجمال الثلاثة في دخول الواحة المفقودة فكرة مُمتازة على ما فيها من مخاطر ... بل هذه فعلًا الطريقة الوحيدة ... فقد كان من الواضح أن «عميد بن شعبان» لن يتحدَّث ... ولن يقول لهم عن طريق المدخل السرِّي للواحة المُختفي بين الجبال.

طلب «أحمد» من «بو عمير» أن يشدَّ وثاق «عميد» ويُخفيَه عن الأعين ثم يُجرِّدَه من ثيابه، ثم طلب من «مصباح» أن يُسرعَ بإحضار ثياب الطارقيَّين الآخرين.

لقد حدَّد الفكرة في ذهنه، سيلبسون ملابس الطوارق الثلاثة ويَدخُلون الواحة ... وبعد ساعة كان «أحمد» و«بو عمير» و«مصباح» قد لبسوا ملابس الطوارق البيضاء وتلثَّموا مثلهم تمامًا، حتى إن «إلهام» قالت: لم يبقَ إلا أن تُحاوِلُوا أسرنا لتكونوا من الطوارق الحقيقيين.

رد «أحمد»: إنني أسيرك يا «إلهام» ... فكيف آسِرُكِ؟!

ابتسمت «إلهام» وقالت: أتمنَّى أن تعودُوا ظافرين!

أحمد: سنضع علامات على طريقنا ... وعسى ألا ينزل السيل مرةً أخرى.

وحمل الشياطين أسلحتهم. ومعها كمية من الديناميت والقنابل اليدوية، ثم أطلقوا أَعِنَّة الجمال فمضَت في طريقها ... بينما انهمكت الفتيات الثلاث في إعداد السيارة الثالثة.

مضت الجمال الثلاثة تهتزُّ أمامًا وخلفًا ... وقد كانت تجربة جديدة بالنسبة لـ «أحمد» حتى أحسَّ بعد نصف ساعة أنه مُتعَب وأن معدته قد انقلبت، ولكنه تمالك نفسه ...

بينما كان «مصباح» و«بو عمير» يمضيان دون مشقة ... فقد كانت لهما تجارب في ركوب الجمال ... مضت الجمال تشقُّ طريقها بين الصخور والجبال ببراعة ... وكان واضحًا أنها تعرف طريقها جيدًا ... ومضت الساعات ... حتى ظنَّ «أحمد» أن الجمال قد تكون ضلَّت طريقها؛ فقد كان حديث «عميد» إلى «إلهام» يؤكد أن الواحة المفقودة قريبة.

وفجأةً ظهر في وسط الجبال القاحلة شريط من الأشجار ... وأدرك الثلاثة أنهم اقتربوا ... ثم شاهدوا شلالًا من المياه يتدفَّق من أعلى الجبل.

ولدهشتهم الشديدة وجدوا الجمال الثلاثة تقترب من الشلال حتى أصبحت بجوار جانبه الأيمن، وزاد تناثُر المياه ... واشتد صوت الشلال حتى أصبح يصمُّ الآذان، ولكن الجمال الثلاثة مضت حتى أصبحت بجوار مسقط الشلال تمامًا، ثم دخلت خلف المياه، ووجد الشياطين الثلاثة أنفسهم في نفق طويل قد أضاءته أضواء مُختفية في الصخور ... وأدركوا أنهم دخلوا الواحة المفقودة فعلًا!

مضت الجمال في النفق الذي كان يتعرَّج كالثعبان ... وبدأت تشيع فيه رائحة برتقال قريب ... وأمسك كلٌّ منهم بمسدسه تحت ثيابه الواسعة واستعدُّوا للاحتمالات القادمة ... وبدا ضوء النهار من فتحة النفق البعيدة ... ثم اجتازت الجمال الثلاثة مدخل النفق المُضاء ... ووجد الثلاثة أنفسهم في مدخل حديقة رائعة ... انتشرت فيها أشجار الفاكهة الكثيفة ...

كانت اللحظات القادمة هي أخطر اللحظات ...

ماذا عليهم أن يفعلوا بعد ذلك؟ هل تقف الجمال في مكان معيَّن أم عليهم أن يقودوها هم؟ وإلى أين؟

كانت أسئلة كثيرة بلا إجابة ... وزاد توتُّر أعصابهم عندما لم يقابلوا أي شخص ... ثم اجتازت الجمال الحديقة التي كانت ترويها عشرات من النافورات الصناعية ... ثم وجدوا جدارًا من الصخر يرتفع نحو ثلاثة أمتار ... وفي جانبٍ منه بابٌ من الخشب المصفَّح بالحديد ... وظهر لأول مرة رجل في ثياب الطوارق فوق برج من أبراج السور ... وأخذ يَرمقُهم من بعيد وقد ظهر أمامه مِدفَع رشَّاش ... يمكن أن يَحصدهم في ثانية واحدة ... ولكن الرجل غابَ عن مكانه ... ثم شاهَدُوا الباب الضخم يُفتَح ... وعرفوا أنه هو الذي يتولى عملية الفتح والإغلاق.

اجتازوا الباب ودخلوا ... لقد أصبحوا الآن في قلب الخطر ... الحظ وحده وشجاعتهم يمكن أن يقودا خطواتهم ... وكانت مفاجأةً لهم أن وقعت عيونهم على مدينة حديثة ...

الشوارع مرصوفة بالطوب ... والمنازل مبنية في أحضان الجبل الشاهق الذي كان يُحيط بالواحة من جميع الجهات ويُخفيها عن العالَم تمامًا.

وفي وسط الشارع الرئيسي الذي يشقُّ الواحة كان هناك مبنًى ضخمٌ مُرتفِع مُشيَّد من المعدن اللامع ... وعلى سقفه شيء يُشبه الطبق الواسع ... تبلغ استدارته أكثر من مائة متر ... ولم يكن هذا هو المبنى الوحيد على هذا الأسلوب ... فبعده تكرَّر المشهد ... المبنى المعدني اللامع والطبق الكبير ... وعلى الفور فكَّر «أحمد» أن هذا المكان يَستخدِم الطاقة الشمسية كمُولِّد للطاقة ...

ومضت الجِمال تشقُّ طريقها ... ومن المدهش أنها بدأت تَجري أسرع مما كانت خلال الطريق ... وأدرك «أحمد» أنها جائعة ... وأنها تعرف المكان الذي ستقف عنده ...

وظهر بعض المارَّة هنا وهناك ... كانت النساء سافرات بلا أي شيء يُغطِّي وجوههن ... بينما كان الرجال مُلثَّمين تمامًا ... ولكن عندما اقتربوا من المبنى المعدني ظهر رجل يسير وهو يرتدي الملابس الأوروبية ... وعلى رأسه قبَّعة من القش تَقيه حرارة الشمس اللافحة.

كانت الجمال تجري، وكان على الشياطين الثلاثة أن يأخُذُوا قرارًا هل ينزلون الآن؟! أم ينتظرون حتى تتوقف الجمال ... وقرَّر «أحمد» أن يتوقفوا في أول مكان يقلُّ فيه المارة الذين لم يكونوا على كل حالٍ إلا بضع عشرات ... وبين المبنى المعدني الأول والثاني كان المكان فارغًا ... وأشار «أحمد» الذي كان في المقدمة إلى «مصباح» و«بو عمير» فتوقَّفا ... لم يكن «أحمد» يعرف كيف يطلب من الجمل أن يَبرك ... ولكن «مصباح» و«بو عمير» كانا قد نزلا، وأقبلا مُسرعَين. وقال «مصباح» لـ «أحمد»: الكزْه في خاصرته.

وضرب «أحمد» الجمل بكعب حذائه بجوار فخذه، وسرعان ما توقف الجمل، ثم نزل على ركبتيه الأماميتَين أولًا ثم أتبعهما بالخلفيتَين ... ونزل «أحمد» ... كان مرهقًا جدًّا من أثر الاهتزاز حتى أحسَّ أنه لا يستطيع الوقوف على قدمَيه ... لم يكد الشياطين الثلاثة ينزلون حتى انطلقت الجمال تجري ... وقال «أحمد»: من الواضح أنها تعرف طريقها.

مصباح: إنه عالَم غريب!

بو عمير: قطعة من الحضارة في الصحراء ... ثم هذه المباني العجيبة التي تُشبه الأطباق!

أحمد: إنها أجهزة لاستخدام أشعة الشمس في توليد الطاقة ...

مصباح: ما هي خطوتنا القادمة؟

أحمد: إنه سؤال من الصعب الإجابة عليه ... إن سكان هذه الواحة كما يتَّضح من المنازل لا يقلُّون عن خمسمائة عدا هذه الأبنية المعدنية، ونحن لا نَستطيع أن نتصدَّى لكل هؤلاء!

مصباح: هل نَنسحِب عائدين؟!

أحمد: حتى هذا لم يَعُد مُمكنًا!

بو عمير: تعالوا نسير حتى لا نَلفِت إلينا الأنظار.

ومشوا في الشارع الرئيسي ... كانت هناك فيلات فاخرة مبنية على الجانبَين ... ولاحظ الشياطين أنها تختلف عن المساكن المبنية على سفوح الجبال المحيطة بالواحة.

وقال «مصباح»: إنَّ الواضح أنها منازل حكومة هذه الواحة!

ضحك «أحمد» رغمًا عنه وقال: حكومة؟! ... قُلِ العصابة التي تحكم الواحة.

وفجأةً دوَّى نفيرٌ عميق ... دوى ثلاث مرات متَّصلة ثم سكَت ... ولاحظ الشياطين أن حركةً نشيطة قد بدأتْ تدبُّ في الشوارع ... وبدأ عدد كبير من الناس يظهر هنا وهناك، ولاحظ الشياطين الثلاثة أن الناس جميعًا يتَّجهون في اتجاه واحد ... وفكَّرُوا ... هل يتَّجهون إلى حيث يتجه الناس ... أم ماذا يفعلون؟

وفي تلك اللحظة ظهر طفل صغير في ملابس الأعراب المزركشة يَمشي وبجواره كلب صغير ... واتجه الكلب إلى الشياطين الثلاثة وأخَذَ يدور حولهم وهو يَنبح ... وناداه الصغير ليعود ... ولكن الكلب العنيد ظلَّ ينبح ... وأدرك الشياطين الثلاثة أن أمرهم قد يُفتضح فأخذوا يُلاطفون الكلب ... واقترب الصغير مُعتذرًا وهو ينهر الكلب ... ثم وجه حديثه إلى الشياطين الثلاثة قائلًا وهو يبتسم: لعله يدعوكم للذهاب إلى الاجتماع.

قال «أحمد» ملاطفًا الطفل: أي اجتماع؟

رد الطفل بدهشة: ألم تسمعُوا النفير ... إنه يدعو جميع الطوارق للاجتماع مع أعوان الدكتور.

تظاهر «أحمد» بالدهشة وقال: إنَّني لم أسمعه.

الولد: لقد أُطلق نفير الاجتماع منذ دقائق قليلة ليَجتمع كل الطوارق فورًا.

أحمد: ولكن لماذا؟

الطفل: سمعت أبي يقول إنَّ ثلاثة من الطوارق دخلوا المدينة ولم يتوجَّهُوا إلى مكتب الأمن لتقديم أنفسهم بعد عودتهم من الخارج ... إنَّ الذين يخرجون من الواحة قلائل جدًّا ... ولا بد عند عودتهم من الذهاب إلى مكتب الأمن.

وأمسك الطفل بكلبه الصغير وجرَّه بعيدًا ... وأدرك الشياطين الثلاثة أنهم في مأزق خطير ... فبعد قليل يَنطلق حراس الواحة ... بل كل سكان الواحة للبحث عنهم ... ولم يكن أمامهم إلا طريقان ... إما أن يختفوا في أقرب مبنى حتى لا يَلفِت وجودهم الأنظار ... وإما أن ينضمُّوا للذاهبين إلى الاجتماع!

دار هذا الخاطر في رءوسهم جميعًا في نفس الوقت، وقال «بو عمير»: أقترح أن نختبئ فورًا ... إن انضمامنا إلى الاجتماع سيَكشف أمرنا بعد أن يُنادُوا الأسماء ... ولعلَّ بعض أصدقاء «عميد بن شعبان» سيَعرفونَنا من أول لحظة.

أشار «أحمد» إلى المبنى الرئيسي في المباني المعدنية وقال: سنَدخُل هنا.

وأسرعوا يمشون في اتجاه المبنى ... ووجدوا بابًا جانبيًّا مفتوحًا فدخلوا منه ووجدوا أنفسهم في مكتبٍ أنيق ... أبوابه من الزجاج السميك ... ولم يكن هناك أحدٌ.

أغلقوا البابَ خلفهم وأداروا رءوسهم هنا وهناك يفحصون المكان ... كان معملًا فخمًا يتوسطه مُولِّد ضخم للطاقة ... وكان المكان خاليًا ... ومن الواضح أنه يُدار أوتوماتيكيًّا.

فكَّر «أحمد» لحظات ثم قال: سنقوم بوضع عبوات ناسفة في المكان ... محدَّدة بمدة ساعة واحدة ...

مصباح: وبعدها؟

أحمد: سنُحاول نسف أكبر مجموعة من الآلات لإثارة الفزع في المكان حتى نتمكَّن من الهرب ... لقد عرفنا ما يكفي من المعلومات عن الواحة المفقودة ... والقوة الخفية ... ولعلَّ بعثة أخرى تستطيع إكمال مهمتنا.

ووضع «مصباح» حقيبة الديناميت على الأرض ... وبدأ هو و«بو عمير» يُجهِّزون العبوات الناسفة ... بينما وقف «أحمد» يَحرسهما ... وانتهى الاثنان من تجهيز العبوات الناسفة واتجها إلى المولدات الضخمة ... عندما فُتح باب المكتب فجأةً ودخل رجل أشقر يَرتدي الملابس الإفرنكية وعلى عينَيه نظارة سوداء وفي يده مسدَّس شهَرَه في وجوههم.

القوة الخفية

لم يستقرَّ الرجل الأشقر إلا ثوانيَ فقط على قدميه ... فقد أطارته ضربة من يد «أحمد» في الهواء ثم سقط على الأرض ... واستولى «أحمد» على مسدَّسه ووضعه جانبًا ... ثم حاول فتح الباب الزجاجي للدخول مع «مصباح» و«بو عمير» إلى المولدات الضخمة ... ولكن الباب لم يفتح ...

وفجأةً تسربت رائحة خفيفة في الغرفة ... وصاح «بو عمير»: غاز مخدِّر!

واندفعوا ليخرجوا من الباب الذي دخلوا منه ... ولكنَّه كان مغلقًا ... وكان الغاز يتسرب بشدة ... وبدءوا يحسُّون بأثره ... فلم يتردَّد «أحمد» وأطلق الرصاص على الباب الزجاجي ... ولكن الزجاج لم يصب بخدش واحد ... وكان واضحًا أنه زجاج مصفَّح ... ضد الكسر والرصاص ... وملأت الغرفة رائحة الغاز المخدِّر ...

وبدأ الشياطين الثلاثة يترنَّحون ... فقد وقعوا في مصيدة الزجاج ... وسلطت عليهم القوة الخفية نوعًا جديدًا من السلاح لم يستعدُّوا له ... ولم تمضِ سوى عشر دقائق، حتى انهار كلٌّ منهم جالسًا على مقعد في الغرفة، وقد ذهب في غيبوبة كاملة.

عندما استيقظ الشياطين الثلاثة بعد ذلك ... كان الظلام قد هبط ... ووجدوا أنفسهم في غرفة واسعة نظيفة ... نائمين على أسرَّة بيضاء كأسرة المستشفيات وقد جُرِّدوا من أسلحتهم.

كان «أحمد» أول من استيقظ ... وأخذ يتذكَّر الأحداث الأخيرة التي مرت به ... ونظر حوله فوجد «مصباح» يتثاءب ويفتح عينيه ... ثم استيقظ «بو عمير» ... وتبادل الشياطين النظرات ... إنهم أسرى القوة الخفية ... والشيء العجيب أن «أحمد» أحسَّ بنوع من السرور الخفي ... لأنه أخيرًا سيعرف طبيعة هذه القوة ... ولماذا تختفي في هذه الواحة المفقودة داخل جبال تيبستي ... حتى لو كلفه ذلك حياته.

كان مُلحقًا بالغرفة دورة مياه ... وقام «أحمد» فدخلها وأخذ حمامًا باردًا رد عليه نشاطه ... وتبعه «مصباح» ثم «بو عمير» ... وبعد أن اجتمعوا مرةً أخرى في الغرفة دخلت فتاة بدوية حسناء ودَعتهم لتناول الطعام في غرفة مُلحَقة بغرفة النوم.

كان كل شيء نظيفًا ولامعًا ... حتى أحس الشياطين بقدر من السعادة بعد رحلة الصحراء المرهقة ... وكانت ثمة موسيقى خفيفة تنبعث في الغرفة ... ولولا أنهم كانوا متأكدين أنهم في قلب الجبال ... لظنُّوا أنهم في قلب عاصمة ... وفي فندق عظيم!

جلسوا إلى مائدة الطعام. وتناولوه بشهية مفتوحة ... وسرعان ما جاءت البدوية الحسناء بأطباق من الفاكهة الطازجة والحلوى والشاي ... فقال «مصباح»: لا بأس أن نقضيَ هنا بقية عمرنا!

أحمد: ربما كان هذا هو قصد القوة الخفية من هذا الإكرام والبذخ.

انتهى الطعام، وأكلوا الفاكهة وقال «بو عمير»: إنها من ألذ وأحلى ما أكلنا في حياتنا!

وبعد لحظات دخل رجل أشقر ... أزرق العينين ودعاهم لأن يتبعوه ... وخرجوا من غرفة الطعام إلى دهليز طويل مُضاء ... ثم وقفوا أمام باب فُتح فوجدوا مصعدًا دخلوا فيه ... وارتفع بهم المصعد ثلاثة أدوار وخرجوا، ووجدوا حارسًا مسلَّحًا في انتظارهم طلب منهم أن يتبعوه.

كان كل شيء يسير في دقة تامة ... وكل شخص في مكانه ... ولم تكن هناك أصوات عدا صوت هديرٍ بعيد لماكينات تدور ... وأخيرًا دخلوا غرفة واسعة مضاءة بشكل مريح، ومفروشة بفخامة ... وفي صدرها على مكتب مرتفع كان الرجل الذي يقود هذه الواحة ... أو كما قال لهم الحارس: الدكتور.

وقف الدكتور مرحِّبًا بهم ... وتأملوه ... كان طويل القامة نحيلًا ذا لحية شقراء وخَطَها الشيب ... يضع على عينيه نظارة ذات إطار ذهبي خفيف، وقال مقدِّمًا نفسه: دكتور كارل فون مانشتاين.

وعرف الشياطين من الاسم أنه ألماني ... وقال «أحمد» مقدمًا الشياطين: «مصباح» ... «بو عمير» ... «أحمد» ...

دكتور كارل: إنني أرحب بكم في عالمي الصغير ... وأتمنى أن تتفهَّموا أهدافي وأن تكونوا أعضاءً صالحين في هذا العالم، وأتمنَّى أن نتحدث بصراحة.

قال «أحمد»: أرجو أن توضح لنا يا دكتور معنى هذا كله!

دكتور كارل: أي معنى؟! إنكم اقتحمتم عالمنا دون استئذان ... ولعلَّكم قتلتم ثلاثة من رجالي ... ولكن احترامًا لشجاعتكم أعرض عليكم شرف الانتساب إلى عالَمِنا الصغير.

أحمد: لعالم القوة الخفية!

ابتسم «الدكتور كارل» وأشعل غليونه وقال: نعم القوة الخفية ... كيف سمعتم بها؟!

أحمد: إن العالم الخارجي يبحث عن حقيقة هذه القوة منذ أكثر من ثلاثين عامًا ... ونحن جزء من هذه المحاولة ...

زادت ابتسامة «الدكتور كارل» وقال: ولن يَصل أحد أبدًا إلى حقيقتها ... فنحن نملك القوة التي تمنَع اقتحام عالَمنا الخفي مهما كانت المحاولة.

أحمد: قوة الطاقة الشمسية؟!

تغضَّن وجه «الدكتور كارل» وقال: كيف عرفت؟!

أحمد: ذلك واضح من الأجهزة المنتشرة في وسط الواحة، وأي واحد على قدر من المعرفة بالعلم يستطيع أن يعرف أن الحياة في هذا المكان تقوم على طاقة مُستمَدَّة من الحرارة الشمسية.

كارل: هذا صحيح ... إنني العالم الوحيد الذي استطاع أن يَملك أسرار الشمس ويتمكَّن من تحويل هذه الطاقة الجبارة إلى خدمة الناس.

أحمد: ليس كل الناس يا دكتور!

اضطجعَ «كارل» على كرسيِّه وأشعل غليونه ثم قال: ليس كل الناس يستحقُّون الحياة ... لقد كنت أعمل في أبحاث الطاقة الشمسية في ألمانيا قبل الحرب العالَمية الثانية، وتوصلت إلى جهاز يمكنه أن يجتذب الطاقة الشمسية كلها وهي أقوى مصدر للطاقة في الوجود ... ولكن في الوقت الذي بدأتُ فيه تطبيق أبحاثي هُزمَت ألمانيا وسقطت واستطعت الفرار أنا وعدد من زملائي وزميلاتي إلى هذا المكان.

بو عمير: ولكن لماذا هذا المكان بالذات؟!

كارل: إن عمِّي الذي كان رحالة مشهورًا اكتشف هذه الواحة منذ أربعين عامًا ... وأخفى سرها عن العالم ... وقد كنتُ معه عندما اكتشفها ... وكان في نيته أن يُعلن عنها في وقت مناسب ولكنه مات قبل أن يحقِّق أمنيته ... وهكذا عندما هُزمت ألمانيا ... هربتُ مع عدد من زملائي إلى هنا ومعنا ما يكفي من أجهزة لتحقيق حلمنا.

مصباح: أي حلم؟!

كارل: حلم السيطرة على العالم ... وقد أقنعنا قبيلة العليات أن تنضمَّ إلينا ... وهي قبيلة من الطوارق تحلُم باستعادة مجدها القديم أيام ملكتهم العظيمة «تين هنان» التي كانت تُسيطِر على الصحراء ... وقد وعدتُهم أن أعيد إليهم مملكتهم ...

وتذكر «أحمد» رسم الملكة الذي كان على الأيقونات، والوشم الذي كان على ذراع الطارقي «عميد بن شعبان» وقال: تلك الملكة المرسومة على أذرعهم؟

كارل: نعم ... والتي وجدوا جثتها عام ١٩٢٥م في مقبرة تضمُّ ١١ غرفة، وهي موجودة الآن في متحف باردو بالجزائر ... لقد أنجبَتِ الملكة طفلة ... ومن نسل هذه الطفلة هؤلاء الطوارق الذين يحلمون باستعادة مملكتهم.

بو عمير: ولكن الطوارق يعيشون الآن كمواطنين في الجمهورية الجزائرية ... ولم أسمع عن محاولة استعادة مملكتهم إلا منك!

ابتسم «كارل» قائلًا: إنك لكي تقنع هؤلاء الطوارق بمساعدتك لا بد أن تعدهم بشيء عظيم ... وليس هناك أعظم من استعادة المجد ... والسلطان!

أحمد: والبعثات التي أرسلت للكشف عن القوة الخفية ... أين ذهبت دون أن تترك آثارًا؟!

كارل: بعضُهم يعيش معنا الآن ... وبعضهم حاول المقاومة وهؤلاء تكفَّلت الطاقة الشمسية بمحوهم من الوجود.

ومضى «كارل» يقول: سأريكم الآن معنى قوة الطاقة الشمسية.

ثم ضغط على زرٍّ أمامه فأظلمَت الغرفة ... وفي نهايتها ظهر مسرح صغير عليه هيكل سيارة صغيرة ... وضغط «كارل» على زر آخر ... وانبعث شعاع يُبهر الأبصار ... وتلاشى هيكل السيارة كأنه لم يكن.

وضحك «كارل» ضحكة عصبية عالية وقال: هذا مصير من لم يستمع إلى صوت العقل ... والآن ما رأيكم؟

أضيئت الأنوار مرةً أخرى ... وصمت الشياطين الثلاثة ... لقد أدركوا أنهم أمام عالِم مجنون يملك قوة لا حدَّ لها ... وردَّد «كارل» جملته الأخيرة: الآن ... ما رأيكم؟!

ولَمَّا لم يسمع ردًّا قال: على كل حال ما زال أمامنا وقتٌ طويل.

وقبل أن يُتمَّ جملته سمعوا صوت نفير عميق يُطلق دويًّا متواصلًا ... ثم دق جرس التليفون على مكتب «كارل»، ورفع الدكتور السماعة وأخذ يتحدث، وبعد لحظات أخذ يكرر جملة واحدة في هيستيرية وانفعال: لا يُمكن! كيف حدث هذا؟! أين كان الحراس؟! لا يمكن ... كيف؟!

ثم وضع السماعة في عنف وقال: إن لكم شركاء؟

وتذكر الشياطين الثلاثة ... «زبيدة» و«إلهام» و«هدى» ... ودقَّت قلوبهم في خوف ولكن «كارل» عاد يقول: لقد اقتحموا الواحة ... وهم الآن يسيطرون على المولدات الرئيسية للطاقة ويُهدِّدون بنسفها ما لم نُفرج عنكم.

كان ذهول الشياطين الثلاثة أكثر من ذهول «الدكتور كارل» ... كيف استطاعت الشيطانات الثلاث اقتحام هذه القلعة الحصينة ودخولها؟! إنها معجزة!

أخذ التليفون يدقُّ وأمسك «كارل» بالسماعة ويده تَرتجِف وأخذ يستمع والعرق يتصبب على وجهه وهو يردد نفس الكلمات: لا يمكن! في خلال ربع ساعة!

ووضع السماعة ووقف ... واقترب من الشياطين وقال: تحدثوا إليهن. إنهنَّ ثلاث فتيات ... قولوا لهن إنني سأُحسن معاملتكم جميعًا ... إنكم ستعيشون أجمل حياة، سيكون في متناول أيديكم كل ما تحلُمُون به ... عندنا مجوهرات لا مثيل لها ... عندنا القوة التي ستُسيطِر على العالم ... ستصبحون من حكام العالم ... صدقوني إنها فرصتكم!

كان يتحدث وعينه على ساعة كبيرة فوق مكتبه ... وأدرك الشياطين الثلاثة أن الشيطانات الثلاث حدَّدن موعدًا للإفراج عنهم وإلا نسفن المولدات الرئيسية ... وكان «كارل» يسير في الغرفة وهو يحدث نفسه: المولدات الرئيسية ... لقد قضيت ثلاثين عامًا في بنائها ... ولن أستطيع تهريب أجهزة أخرى ... وإذا نُسفت انتهت الواحة إلى الأبد!

كان عقرب الدقائق يقفز بين النقط السوداء مُعلنًا أن الوقت ينقضي ... والتفت «كارل» إلى الشياطين وقال: ما هو ردُّكم؟! استمعوا لصوت العقل.

وقف «أحمد» قائلًا: ليس لنا إلا ردٌّ واحد ... الإفراج عنا فورًا ... للانضمام إلى زميلاتنا.

ونظر الدكتور إلى الساعة ... كانت خمس دقائق قد انقضت ... ومرةً أخرى أخذ يتحدث ويدور في الغرفة ... وظهر رجلان عند الباب ... اقتربا بسرعة من «الدكتور كارل» وتحدَّثا إليه همسًا ... ورفع الدكتور يدَيه وتركهما يهبطان ثم قال: لقد انتهى كل شيء ... أفرجوا عنهم ...

واقتاد الرجلان الشياطين الثلاثة عبر الدهاليز المضاءة ... ونزلوا بالمصعد واجتازوا شارعًا ثم دخلوا مبنًى كبيرًا آخر ... ومشوا فترة في دهاليز أخرى ... ثم وجدوا أنفسهم وجهًا لوجه مع «زبيدة»، و«إلهام»، و«هدى».

لم يكن هناك وقتٌ للعواطف وقالت «إلهام»: لقد قامت «زبيدة» بنزع الأجهزة الدقيقة الهامة في المولِّدات الرئيسية حتى لا يُمكن استخدامها ... وبهذا يمكن مغادرة الواحة فورًا!

أحمد: هذا لا يكفي ... سنأخذ معنا «الدكتور كارل» كرهينة حتى نخرج ...

هدى: لقد وضعت المواد الناسفة في أماكن خفية وهي من النوع الذي يُمكن تفجيره باللاسلكي ... وبهذا يمكن السيطرة عليهم ونحن على مسافة بعيدة.

أحمد: لقد حقَّقتن معجزة! ولكن كيف؟!

ابتسمت «إلهام» وقالت: إن الفضل للكلب «جولد»؛ لقد استطاع أن يَتتبع أثر الجمال الثلاثة، وقد قفزنا من الأسوار عندما هبط الظلام ... واستطعنا التسلُّل إلى المولدات بعد أن أسرنا أحد الحراس.

أحمد: عظيم! عظيم جدًّا!

ثم التفت إلى أحد الرجلين وقال: أخبر «الدكتور كارل» أنه سيأتي معنا كرهينة ونعدكم بإطلاق سراحه بعد أن نخرج من وادي الموت.

بعد يومين من هذه الأحداث كانت السيارة الوحيدة التي تمَّ إصلاحها تحمل الأصدقاء في قلب الصحراء عائدة إلى بنغازي في ليبيا ... وهم يحملون أسرار الواحة المفقودة ويفكرون في وقع هذه الأخبار على رقم «صفر» بل على العالم كله ... وكان «جولد» بطل الإنقاذ يَرقُد مصابًا بينهم ... وكانوا جميعًا يرمقونه في إعجاب وتقدير ...

هنـــداوي